الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف لميلة

معهد الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي
المرجع: .....

حجاجية الطباق في خطب الجمعة دراسة تداولية في نماذج مختارة

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي
تخصص: لسانيات تطبيقية

إعداد الطالب :
*أمنور أمود

إشراف الأستاذ:
خالد سوماني

السنة الجامعية 2024/2023

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

اللهم لك الحمد حمداً لا ينفد أوله ولا ينقطع أخره لك الحمد فأنت أهل أن تحمد وتعبد وتشكر . لك الحمد في اليسر والعسر ولك الحمد على نعمك التي لا يحصيها غيرك. لك الحمد حمداً لا ينبغي إلا لك ،لا إله إلا أنت . الحمد لله حبا الحمد الله شكرا الحمد لله رجاء وطاعة الحمد لله دائما وأبدا ،وأفضل الصلاة وأعطر التسليم على سيدنا محمد صلاة تهب لنا بها أكمل المراد وفوق المراد، في دار الدنيا ودار المعاد، وعلى آله وصحبه وبارك وسلم عدد ما علمت وزنة ما علمت وملء ما علمت وبعد :

بعد شكر الله عز وجل والصلاة على رسوله لا يسعنا إلا أن نرد الفضل لأهله ونقدم الشكر لأصحابه أساتذتنا الكرام الذين بفضل الله أولا ثم بفضلهم ثانيا وصلنا لهذا المشوار، ونخص بالذكر الأستاذ الفاضل "خالد سوماني" على توجيهاته وإشرافه حتى أنجز هذا العمل .

فله منا ولكل من كان سندا وأزرا من قريب أو من بعيد جزيل الشكر ووافر الامتنان .

مـــقـــدمـــــة

تزايد الاهتمام بالتواصل والحجاج في العصر الحديث مع مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، ويرجع فضل السبق في إعادة بعث نظرية الحجاج وصياغتها صياغة لسانية وعقلانية إلى "شاييم بيرلمان وأولبريخت تيتيكا"، من خلال نشر كتابهما المشترك، والموسوم "مصنف في الحجاج " عام 1958م، إلا أن الحجاج يعود في جذوره إلى الحضارة اليونانية خاصة مع "أرسطو" في كتابه "الخطابة" أو ما أطلق عليه البلاغة القديمة.

وقد عرف الحجاج في الدرس اللغوي العربي القديم، كأداة لمناقشة الأفكار والآراء والمعتقدات وغدا في العصر الحديث آلية مهمة في عملية التواصل وكذا مناقشة الآراء المطروحة بمعارضتها أو تأييدها، أو اقتراح أفكار أخرى للوصول إلى جواب مقنع. وزاد من أهمية الحجاج والبحث فيه – فضلا عن– كونه مبحثا من مباحث التداولية، أنه بات أشد لصوقا بحياة الناس عامة، فترى الناس تتوسله في تواصلها وخطابها: يتوسله رئيس الحزب للدفاع عن حزبه وكيانه الإيديولوجي والإمام إذ؛ يخطب في الناس يوم الجمعة، والشيخ المفتي في استخراج الأحكام الشرعية وإقناع خصومه في المناظرات، والأستاذ مع طلبته في مدرجات الجامعة، والقادة العسكريون يقنعون الجنود بالتضحية لخوض المعارك الطاحنة والدفاع عن الوطن. لذلك فلا تواصل بلا حجاج وحيث اللغة والتواصل فثم حجاج؛ ومن ثم ندرك الأهمية البالغة للحجاج.

فالحجاج فعالية خطابية وممارسة فكرية يعتمدها المتكلم للتأثير على المتلقي بغية إقناعه واستمالته وتغيير سلوكه ومعتقده؛ باستخدام آليات واستراتيجيات متنوعة، عقلية منطقية ولغوية

بلاغية تخدم موضوع الخطاب، وهذا دليل على وجود علاقة واضحة بين الحجاج والبلاغة منذ القديم.

وتعد خطب الجمعة من أبرز وسائل التواصل الجماهيري في المجتمعات الإسلامية، حيث تجمع بين التأثير الروحي والتوجيه الديني والاجتماعي. في هذا السياق، يلعب الحجاج دوراً محورياً في تعزيز فعالية الخطب؛ إذ يساعد في توضيح الأفكار وتقديم الحجج الداعمة لها بأسلوب مقنع وجذاب. ومن بين الأساليب البلاغية المستخدمة في خطب الجمعة، يبرز "الطباق" كأداة فنية تساهم في تعزيز قوة الحجاج وتأثيره على المستمعين؛ ومن هنا تبلور موضوع بحثنا الموسوم بـ: حجاجية الطباق في خطب الجمعة دراسة تداولية في –نماذج مختارة– الذي من خلاله طرحنا الإشكالية التالية: كيف يشتغل الطباق كأداة بلاغية مشحونة بالحجاج في تعزيز الإقناع؟ وقد تفرعت عنها مجموعة من الأسئلة أبرزها:

– ما علاقة الطباق بالحجاج؟

– ما علاقة البلاغة بالتداولية؟

– كيف يسهم الطباق في الوظيفة التأثيرية لخطب الجمعة؟

وهناك أسباب ذاتية وأسباب موضوعية حفزتني لخوض غمار هذا البحث، ومن الأسباب الذاتية نذكر:

- ميلنا إلى البحث في الخطاب الديني.

- توجيه الأستاذ المشرف إلى هذا النوع من الدراسات.

- الرغبة في تحسين الخطاب الديني.

أما الأسباب الموضوعية فنذكر منها:

- أهمية موضوع الحجاج كونه موظفا في جميع أنواع الخطاب.
- الرغبة في التعرف على أهم مفاهيم الدرس التداولي والحجاجي.
- امتلاك مهارة توظيف الطباق كحجة اقناعية في الخطابة الدينية.

ويهدف البحث إلى:

- اخذ فكرة عامة عند التداولية كمنهج جديد في الدرس اللساني.

- الوقوف على مفهوم الحجاج وأنواعه وبعض آلياته وتقنياته.

- دراسة حجاجية الطباق في خطب الجمعة من خلال تحليل استخدام هذا الأسلوب البلاغي وكيفية توظيفه لخدمة الأغراض الحجاجية في الخطابة.

ومن الدراسات السابقة التي اهتمت بموضوع الحجاج وقاربت له مقاربة تداولية نجد: الدراسة التي قام بها عمر بلخير في بحثه" معالم لدراسة تداولية وحجاجية للخطاب الصحفي الجزائري أطروحة دكتوراه 2006، ودراسة حسين بوبلوطة في بحثه الذي كان عنوانه الحجاج" في الإمتاع

والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي" رسالة ماجستير 2009، إلى جانب نعيمة يعمرانين في دراستها الموسومة بـ" الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير" رسالة ماجستير2012.

وفي سبيل بلوغ أهداف البحث والإجابة عن تساؤلاته قسمت بحثي إلى مدخل وفصلين وخاتمة، حيث خصصت مدخله لتناول موضوع التداولية من حيث تعريفها ونشأتها وأهم مبادئها، أما الفصل النظري المعنون بـ "الحجاج والطباق دراسة تأصيلة في الماهية والأنواع" فخصصته للوقوف على ماهية الحجاج وأنواعه وأصوله في الدرس الغربي والعربي مع ذكر بعض آلياته، بالإضافة إلى تناول الطباق من حيث التعريف والأنواع. أما الفصل التطبيقي فأتى معنونا بـ"الطباق من التحسين إلى التداولية" فخصص لتحليل كيفية تجلي الطباق كآلية حجاجية في مدونة الخطب. أما الخاتمة فقد عرضت فيها أهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذا البحث.

ونظرا لطبيعة الموضوع فقد اقتضى أن نزاوج بين منهجيين في الدراسة، المنهج الوصفي، تتبعنا من خلاله ماهية التداولية والحجاج والطباق، وأما المنهج التداولي فكان لكشف المظاهر الحجاجية لأسلوب الطباق في النماذج المختارة من خطب الجمعة.

وقد اعتمدت على عدة مصادر ومراجع في جمع وترتيب وتنظيم فصول هذا البحث نذكر منها: التداولية عند العلماء العرب لـ"مسعود صحراوي"، واللغة والحجاج لـ "ابي بكر العزواي"، والتلخيص في علوم البلاغة " للقزويني".

وقد اعترضتني خلال انجاز هذا البحث بعض الصعوبات نذكر منها:

– ضيق الوقت بسبب مشاغل متعلقة بالعمل.

– التباين والاختلاف في المصطلحات من باحث إلى آخر وعدم الاتفاق على رؤيا واحدة ما سبب صعوبة في انتخاب مادة البحث.

– ندرة الدراسات الحجاجية المتعلقة بالخطاب الديني(خطب الجمعة).

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي المشرف الدكتور "خالد سوماني" على ما قدمه لي من فضل في توجهي وإرشادي لانجاز هذا البحث وتذليل صعابه، من أجل إخراجه في أحسن وأبهى حلة. فنسأل المولى له حسن الجزاء والثواب، والحمد لله رب العالمين وبه نستعين.

مـــدخـــل

مـــاهية التداولية

أولا: تعريف التداولية

ثانيا: نشأة التداولية

ثالثا: مبادئ التداولية

رابعا: جهود العرب التي تنصب في التداولية

شهد الدرس اللساني الحديث والمعاصر، ظهور توجه لساني يتجواز دلالة الألفاظ كما هي المعجم، باحثا عن معانيها المتعددة في سياقاتها المختلفة، معتبرا أن الاستعمال يضطلع بدور كبير في تحديد معاني تلك الألفاظ، وعرف هذا التوجه بـ (Pragmatic)، والذي ترجم فما بعد إلى عدة مصطلحات عربية منها: (السياقية، الذرائعية، النفعية، المقامية،... وأشهرها التداولية).

وتتقاطع التداولية مع فروع كثيرة من أنواع المعرفة، كاللسانيات، والفلسفة، والمنطق، وعلم الاجتماع...وذلك ما شكل صعوبة لدى الباحثين في تقديم تعريف جامع مانع لها، و سنحاول فيما يلي تتبع بعض ما قدمه الباحثون من التعريفات المتعلقة بالتداولية مع الإشارة إلى الخلفيات التي ارتكزت عليها.

أولا- تعريف التداولية:

1- التعريف اللغوي:

يرجع مصطلح التداولية إلى الجذر اللغوي (دول) وله معان مختلفة لا تخرج عن التحول والتبدل، فقد ورد في معجم أساس البلاغة للزمخشري (ت 538هـ) قوله: « دول، دالت له الدولة، ودالت الأيام بكذا، وأدال الله بني فلان من عدوهم، جعل الكرة لهم عليه، والله يداول الأيام بين

الناس مرة لهم ومرة عليهم. والدهر دول وعقب ونوب، وتداولوا الشيء بينهم. والماشي يداول بين قدميه، يراوح بينهما»[1].

ورد في لسان العرب لابن منظور(ت 711هـ) « تداولنا الأمر، أخذناه بالدّول وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر... ودالت الأيام أي دارت والله يداولها بين الناس، وتداولته الأيدي أخذته هذه مرة وهذه مرة وتداولنا العمل والأمر بيننا. بمعنى تعاورناه فعمل هذا مرة وهذا مرة »[2].

إن الملاحظ على معاجم العربية أنّها لا تكاد تخرج في دلالاتها للجذر(دول) عن معاني: التحول والتبدل والانتقال، سواء من مكان إلى آخر، أم من حال إلى أخرى، مما يقتضي وجود أكثر من طرف واحد، يشترك في فعل التحوّل والتغير والتبدل والتناقل، وتلك حال اللغة متحوّلة من حال لدى المتكلم، إلى حال أخرى لدى السامع، ومتنقلة بين الناس يتداولونها بينهم.

وقد ورد لفظ "التداول" في القرآن الكريم في مواضع عدة بالمعنى اللغوي، منها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 188]. وقوله أيضا عز وجل: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ، وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: 140].

[1]– الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط2، 1998م، مادة (دول).

[2]– ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مج11، ط3، 1994م، مادة (دول).

كذلك نلحظ أن لفظ (دول) بمشتقاته، استعمل في القرءان الكريم بمعنى تغير الحال من حال إلى حال، أو انتقال الملك من قوم إلى قوم، أو التعاقب والتناوب على أمر ما، كما تنتقل اللغة في الاستعمال من المتكلم إلى السامع. ومن هنا تظهر لنا العلاقة بين المعنى اللغوي والمفهوم الاصطلاحي.

2-التعريف الاصطلاحي:

التداولية مصطلح عربي، وضع في مقابل المصطلح الأجنبي (pragmatic) ولمعرفة أصل هذا المصطلح؛ فانه يلزم العودة إلى أصوله الغربية والى بيئة نشأته الأولى.

2-1- مصطلح التداولية عند الغرب:

مصطلح التداولية يتسم بدرجة من الغموض إذ يقترن به في اللغة الفرنسية المعنيان التاليان: "محسوس" و"ملائم للحقيقة"، وفي الإنكليزية وهي اللغة التي كتبت بها أغلب النصوص المؤسسة للتداولية، فان كلمة (pragmatic) تدل في الغالب على « ما له علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقية، وهكذا إن الحقل الذي فتحه هذا الاختصاص العلمي المسمى تداولية ضخم، وتلقى فيه الأعمال الهامشية التي لا تنتمي إلى الاختصاصات المؤسسية، وهي اللسانيات وعلم اجتماع والإنتربولوجيا وعلم النفس الاجتماعي والدلالية.... »[1]

[1]- بلانشيه فيليب، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2007م، ص17.

وعرف مصطلح التداولية (Pragmatique) مدلولات عديدة، فقد ظهر مصطلح (Pragmatique) انطلاقا من الأصل اليوناني (Pragma) الذي يعني العمل (action) ومنه اشتقت الصفة اليونانية (Pragmatikis) التي تحيل على كل ما يتعلق بمعاني (العمل) وابتداء من القرن17م، تعني كل بحث أو اكتشاف، من شأنه أن يعرف لا يفضي إلى تطبيقات ذات ثمار علمية.

ويعد تشارل موريس "Charles Morris" صاحب أقدم تعريف لمصطلح التداولية. وقد عد التداولية جزءا من السيميائية حيث يقول: « إن التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات »[1].

وقد كان اهتمام "تشارل موريس" بالتداولية انطلاقا من عنايته بتحديد الإطار العام لعلم العلامات أو السيميائية من خلال تمييزه بين ثلاثة فروع وهي :

– الأول: النحو أو التراكيب (Syntax) وهو دراسة العلاقة الشكلية بين العلامات بعضها البعض.

– الثاني: الدلالة (Semantic) وهي دراسة علاقة العلامات بالأشياء التي تؤول إليها هذه العلامات.

– الثالث: التداولية (Pragmatics) وهي دراسة علاقة العلامات بمستعمليها وبمؤوليها.

[1]– فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، (د ط)، 1996م، ص3.

أما ماري دييز " Marie diller " وفرانسوا ريكاناتي " Francois recanat " فيعرفان التداولية بأنها « دراسة استعمال اللغة في الخطاب شاهدة في ذلك على مقدرتها الخطابية »[1].

ومن خلال تحليل هذا القول نخلص إلى القول أن:

– التداولية علم يهتم بدراسة اللغة الإنسانية في الاستعمال.

– تسعى التداولية إلى الكشف عن المقدرة الإنجازية التي تحققها العبارة اللغوية.

– التداولية بحث في الدلالات التي تفيدها اللغة في الاستعمال.

أما التداولية عند رائدها أوستين " Austin " فهي جزء من علم أعم هو دراسة التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي، وبهذا المفهوم ينتقل باللغة من مستواها اللغوي إلى مستوى آخر، هو المستوى الاجتماعي في نطاق التأثر والتأثير.[2]

فالتداولية تدرس الاتصال اللغوي في إطاره الاجتماعي؛ بالكشف عن الشروط والمعطيات التي تسهم في إنتاج الفعل اللغوي من جهة، كما تبحث عن فاعليته وآثاره العملية من جهة أخرى.

وهو ما يؤكده "جورج يول" حين يقول: «التداولية تعنى بدراسة المعنى كما يعبر عنه المتكلم أو الكاتب ويؤوله المستمع أو القارئ، وبالتبعية فأنها تهتم أكثر بتحليل ما يرميه إليه المتخاطبون

[1]– فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، مرجع سابق، ص3.

[2]– ينظر :نفسه، ص8.

من ملفوظاتهم أكثر مما تعني بما يحتمل أن تعبر عنه الكلمات أو الجمل نفسها، وعليه فإن التداولية دراسة لمقاصد المتكلم »[1].

وذكر" جون ديبوا "J. Dubois "« أننا نجد تحت التداولية من حيث هي منهج توجهات مختلفة، ففي البدء كانت تُعنى بخصائص استعمال اللغة: أي الدوافع النفسية للمتكلمين، وردود أفعال المستقبلين، والنماذج الاجتماعية للخطاب، وذلك بمراعاة الخصائص التركيبية الدلالية ثم تحولت فيما بعد مع" أوستين "Austin " إلى دراسة أفعال اللغة، إلى أن امتدت واتسعت لتشمل نماذج الاستعمال والتلفظ وشروط الصحة والتحليل الحواري »[2].

لنصل إلى القول بأن المصطلح الأجنبي (pragmatic) يحاكي مفهومها الاصطلاحي إلى حد بعيد، والتي تعني دراسة اللغة في الاستعمال، وقد انقاد اللسانيون العرب إلى نفس المساق بعد تشرب هذا المفهوم ونموه في ظل الدرس اللساني العربي المعاصر.

2-2-مصطلح التداولية عند ا لعرب:

ظل مفهوم التداولية عند الباحثين العرب مصطلحا يصعب حصره وضبطه بدقة. ويعود ذلك في الأساس إلى تنوع خلفياتها الفكرية والثقافية، لذلك فقد اختلف علماء اللسانيات في تحديد مفهوم خاص بها يلم بآفاقها وانشغالاتها. والاختلاف لم يقتصر فقط على المفهوم، وإنّما مس أيضا كيفية

[1]- جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2016م، ص18.
[2]- نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، (د ط)، 2004م، ص165.

وتسميّة المصطلح وترجمته، لهذا نجد له عدة مسميات تدور في فلك التداولية نذكر منها: (البرغماتية، النفعية، القصدية، السياقية، المقاميّة، الذرائعية، التداولية... إلخ)، إلا أن أشهرها هو مصطلح التداولية.

إن أول من أطلق مصطلح التداولية مقابلا لـ (pragmatique) في الثقافة العربية هو الفيلسوف المغربي طه عبد الرحمان الذي يقول: « وقد وقع اختيارنا منذ 1970م على مصطلح التداوليات مقابلا للمصطلح الغربي (براغماتيقا)، لأنه يوفي المطلوب حقه باعتبار دلالته على معنيين: الاستعمال والتفاعل معا، ولقي منذ ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم »[1].

والتداولية عند طه عبد الرحمن« تختص بوصف كل ما كان مظهرا من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس وخاصتهم... ، فالمقصود بمجال التداول في التجربة التراثية ، هو إذن محلّ التواصل والتفاعل بين صانعي التراث »[2].

تسعى التداولية إلى دراسة الاستعمال اللغوي في الاتصال اللساني، وفق معطيات سياقية واجتماعية معينة، وتكمن أهميتها في كونها تهتم بإيجاد القوانين الكلية للاستعمال والتعرف على القدرات الإنسانية.

[1]– طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000م، ص27.

[2]– طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، (د ت)، ص 244.

يقول: "مسعود صحراوي" في كتابه "التداولية عند العلماء العرب"« التيار التداولي هو مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة، والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية »[1].

أما عمر بالخير فيذهب إلى أنه وإن اختلفت الأصول الفكرية للتداولية؛ إلا أنها تتفق جميعا أن هدف التدولية دراسة اللغة حال الاستعمال؛ حيث يقول: « والتداولية هي عبارة عن مجموعة من النظريات، نشأت متفاوتة من حيث المنطلقات، ومتفقة في أن اللغة هي نشاط يمارس ضمن سياق متعدد الأبعاد »[2].

ومن وجهة نظر المتكلم، عرفها عبد الهادي بن ظافر الشهري بقوله: « بأنها كيفية إدراك المعايير والمبادئ التي توجهه عند إنتاج الخطاب، بما في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللغوية في ضوء عناصر السياق، بما يكفل له ضمان التوفيق من لدن المرسل إليه عند تأويل قصده وتحقيق هدفه"[3].

[1]– مسعود صحراوي، التداولية عند العرب، دار الطليعة، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت)، ص15.

[2]–عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، ط1، 2003م، ص8.

[3]– مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص15.

ومن ذلك فالتداولية تدرس اللغة حال تداولها وفي سياقات معينة بمعنى تدرس تلك الخطابات التي تكون بين المرسل والمرسل إليه في مقامات معينة، فهي تراعي حال المخاطب وظروفه.

ثانيا- نشأة التداولية:

تدين التداولية في نشأتها لعدد من التيارات الفلسفية والمنطقية، ولذلك يعد من الصعوبة بمكان حصر منابع نشأتها الأولى، إلا أن هناك منابع كان لها الدور البارز في ظهور اللسانيات التداولية نذكر منها:

1- السيميائية:

تعد السيميائية إحدى الحقول المهمة، التي نشأت في أحضانها التداولية، ففي تعريف تشارلز موريس" للتداولية أكد أنها جزء من السيميائية وتمثل إحدى مكوناتها تهتم بدراسة العلاقة بين العلامات، وبين مستعمليها أو مفسريها (متكلم، سامع قارئ كاتب.....) وتحديد ما يترتب عن هذه العلامات، حيث حدد أبعاد السيميائية في ثلاثة أمور هي[1]:

-علاقة العلامات بالموضوعات المعبّر عنها، التي تدل عليها أو تحيل إليها.

-علاقة العلامات بالناطقين بها وبالمتلقي، وبالظواهر النفسية والاجتماعية المرافقة؛ لاستعمال العلامات وتوظيفها، وذلك هو البعد التداولي الذي تهتم به التداولية.

[1]- ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط1، 2009م، ص67.

-علاقة العلامات فيما بينها، وذلك بعد تركيبي يهتم به علم التراكيب.

ويدين الدرس التداولي كثيرا لـ بيرس (Pierce) وهو من الأوائل الذين اهتموا بدراسة العلامة انطلاقا من مفاهيمها، ويعدها أساس النشاط السيميائي، حيث اعتبرها أوسع من المجال اللغوي، وقد عدّت الأسس السيميائية التي أرساها أسسا فلسفية تأملية، وهو يربط فهم اللغة بحال التواصل، ويربط المعنى بظروف الاستعمال[1].

إن مصطلح التداولية هو من إجراءات القراءة التحليلية السيميائية للملافظ التي هي الوحدات الصغرى للنص، ويعدّ هذا الإجراء لاحقا وملازما للقراءة القائمة على دلالة المعاني في النص، فتذهب في تحليل عناصر ذلك بعيدا فتلتمس كل الاحتمالات التي يمكن أن يشع بها الملفوظ.

كما تسعى التداولية إلى إزالة الغموض من عناصر التواصل اللغوي، وتشرح طرق الاستدلال ومعالجة الملفوظات، فهي على وشك أن تكون مرحلة وسطى بين المعارف اللغوية المختلفة والمعارف الموسوعية، وتستمد حقيقتها من رافدين مهمين هما: الرافد المعرفي كما تقدّمه بعض المباحث في علم النفس المعرفي، بما في ذلك الاستدلالات والاعتقادات وغير ذلك، أما الرافد الثاني فهو الرافد التواصلي، المتمثل في أغراض المتكلمين واهتماماتهم ورغباتهم ،... كما تمتاز التداولية بتنوعها المعرفي، وهو السبب الذي جعلها تتفاعل مع علوم مختلفة كعلم الدلالة

[1]- ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص55.

والسيميائية التي هي علوم يجمعها قبل كل شيء الاهتمام بالمعنى الذي يسعى المتكلم إلى إبلاغه وإفهامه للمتلقي، وإن اختلفت طريقة ذلك بين هذه العلوم.

2- الفلسفة التحليلية:

إذا حاولنا البحث عن الجذور الأولى للتداولية فإننا نلمسها في الفلسفة التحليلية فهي الينبوع المعرفي لأول مفهوم تداولي وهو (الأفعال الكلامية).

وهي اتجاه فلسفي بزعامة غوتلوب فريجه (Gottlob Frege) الفيلسوف الألماني ركز فيه على موضوع اللغة، وحاول تغيير مهمة الفلسفة وموضوعها وممارساتها فقد حددت هذه الفلسفة لنفسها مهمة واضحة منذ تأسيسها على أساس علمي موضوعه اللغة، فثارت على الفلسفة الكلاسيكية الميتافيزيقية والطبيعية، لتجعل مهام الفلسفة البحث في اللغة وتوضيحها.

لقد ميز الفيلسوف الألماني "فريجه" بين اسم العلم والاسم المحمول، وبين المعنى والمرجع، محدثا قطيعة معرفية ومنهجية بين الفلسفتين القديمة والحديثة، كما أنه جمع بين بعدين تداوليين مهمتين هما: الإحالة والاقتضاء[1].

واعتبر الألفاظ (كل، وبعض، وواحد، واثنان) لا معنى لها إذا دخلت على علم بل العكس؛ فعند دخولها على علمٍ قد تفسد المعنى، فلا يمكن القول: كل محمد، أو بعض، محمد، أما إذا

[1]- ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص20.

دخلت على محمول فإنها تأتي بمعنى جديد فنقول مثلا: كل متعلم، كل موظف. وتعد هذه المباحث عند الفلاسفة ذات قيمة عالية وتعد ثورة وانقلابا فلسفيا جديدا[1].

وقد سار الفيلسوف النمساوي (لودفيغ فيتغنشتاين) (Wittgenstein) على نهج (فريجه) حيث انتقد مبادئ (الوضعية المنطقية)، وقام بتأسيس (فلسفة اللغة الطبيعية) هذه الفلسفة التي تحدث فيها عن طبيعة اللغة وطبيعة المعنى في كلام الإنسان العادي الطبيعي. وذهبت هذه الفلسفة إلى أن المعنى ليس ثابتا ولا محددا.

ومن هنا يمكن القول: إن ما بين (فريجه) و(أوستين) تتموقع أعمال (لودفيغ فيتغنشتاين) التي ستقود إلى نشأة التداولية، إضافة إلى أن أعمال "فريجه" ستؤدي إلى الفصل الواضح بين اللغة العلمية واللغة العادية.

وقد تأثر بالتجديد الفلسفي الذي جاء به (فريج) عدد من الفلاسفة، منهم هوسرل (husserl) و كارناب (Carmap) وفيتغنشتاين (Wittgenstein) وأوستين (Austin) وسيرل (Searle) وغيرهم.

إن الذي يجمع هؤلاء الفلاسفة حقيقة مشتركة مفادها أن فهم الإنسان لنفسه وعالمه يرتكز في المقام الأول على اللغة فهي التي تعبر له عن هذا الفهم، وتلك رؤية مشتركة بين جميع تيارات الفلسفة التحليلية واتجاهاتها.

[1]– ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص28.

ويمكن إجمال سمات الاتجاه التحليلي بما يلي[1]:

1- ضرورة التخلي عن أسلوب البحث الفلسفي القديم، وخصوصا جانبه الميتافيزيقي.

2- تغير بؤرة الاهتمام الفلسفي من موضوع نظرية المعرفة إلى موضوع "التحليل اللغوي"

-3- تجديد بعض المباحث اللغوية، ولاسيما مبحث" الدلالة" والظواهر المتفرعة عنه.

هذا وقد انقسمت الفلسفة التحليلية إلى ثلاثة فروع أو اتجاهات كبرى هي:

1. الوضعانية المنطقية: positivisme logique بزعامة رودولف كارناب.

2. الظاهراتية اللغوية: phénoménologie du langage بزعامة إدموند هوسرل.

3. فلسفة اللغة العادية: Philosophie du Langage Ordinaire بزعامة فيتغنشتاين.

وهذا الأخير "فلسفة اللغة العادية" هو الذي نشأت بين أحضانه ظاهرة الأفعال الكلامية.

إن نقطة الانطلاق الفعلية للتداولية، انبثقت من أعمال فلاسفة اللغة خصوصا بعد مناقشات أوستين 1950م (Austin) في جامعة هارفارد؛ ولا بد من أن نذكر أنه لم يكن يفكر في تأسيس فرع آخر للسانيات، وإنما اعتمد تأسيس اختصاص فلسفي جديد هو (فلسفة اللغة).

[1]- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص22.

لقد وضع أوستين وتلميذه (سيرل) نواة التداولية وطورا من وجهة نظر تحليلية مفهوم (الفعل اللغوي)، وفي عام 1957م نشر الفيلسوف (بول غرايس) مقالاً في الدلالة كان له أهمية تاريخية، وبعد مضي عشر سنوات ألقى (غرايس) محاضرات وليام جيمس، هذه المحاضرات التي لم تسمح فقط بإحداث تقدم في مستوى معرفتنا باللغات الطبيعية، وإنما أحدثت تغيرا طال حتى هندسة اللسانيات.

إن اكتشاف الأبعاد التداولية للغة فتح آفاقاً أرحب، وأنتج أسئلة جديدة ستكون سبباً للاعتراف بالتداولية على اعتبارها من البحوث اللسانية الأكثر حداثة، إذ بدأت تتلألأ في سماء الدرس اللساني مقولات تداولية جديدة، مثل: البؤرة، والاقتضاء، والاستلزام الخطابي[1].

ومنه يمكن القول إن التداولية نشأت من أعمال فلاسفة اللغة، وإن الفلسفة التحليلية المصدر الأول للمفهوم التداولي، وإن "فريجه" هو من وضع حجر الأساس لهذا العلم والذين تأثروا به ساروا على نهجه.

3-اللسانيات (لسانيات التلفظ):

إن مجال استعمال اللغة هو الخطاب، وهذا لا يكون إلا بعملية قولية هي عملية التلفظ (énonciation)، فهو العملية التي من خلالها يتم تحقيق اللسان تحقيقا فعليا وهو فعل إنتاج واستعمال اللغة الفردي في سياق معين ومحدّد، ينتج عنه الملفوظ (énoncé)، وبما أنّ التلفظ هو

[1]- ينظر: بشرى البستاني، التداولية في البحث اللغوي والنقدي، مؤسسة السياب، لندن، ط1، 2012م، ص36.

مصطلح تداولي فهو لا يهتم بالملفوظ إلا في الاستعمال أو التداول، ويرى نفنست(Benveniste) « أن التلفظ هو موضوع الدّراسة وليس الملفوظ »[1].

وقد حاولت بعض الدراسات في مجال نظرية التلفظ والخطاب بصفة عامة، الإدلاء بدلوها في هذا المجال خاصة أن التداوليّة؛ تعتمد على هذه النظرية التي تولي عملية التلفظ أهمية كبرى باعتبار أن وظيفة اللغة الأولى هي التواصل والتفاعل، من خلال عملية الكلام والحوار. فالتداولية من هذه الوجهة تنطلق في دراستها للمواضيع من... « فكرة جريان الكلام على الألسن أي: من التلفظ ذاته كعملية خاصة بالفرد، والتي تتجلى في ممارسة اللغة، بهدف إيصال الرسالة، أو الخطاب إلى المُخاطب، والتأثير عليه ضمن عنصر التفاعلية... فالتلفظ إذن؛ أساس التداولية في الشكل الظاهري إذ بدون الأولى لا تتحدّد الثانية كعملية وكلتا العمليتين تخضعان إلى عامل السّياق»[2].

وتقوم اللسانيات التداولية على فلسفة اللغة وتداولية أفعال الكلام وتحليل المحادثات وتحليل الفروق الحضارية والتفاعلات اللغوية من منظور العلوم الاجتماعية[3]، ولاهتمامها بلسانيات الكلام، يمكننا القول أن التداولية امتداد للسانيات التلفظ حيث أصبحت تميز بين الملفوظ الذي يُقصد به ما يقال، والملفوظ الذي يُعدّ فعلاً للقول أي بين الدّلالة وتأويلاتها المختلفة والآثار الواقعية للغة[4]،

[1]–عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية لغوية، دار الكتاب الجديدة، لبنان، (د ط)، 2004م، ص28.

[2]– ذهبية حمو، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل، الجزائر، ط1، 2005م، ص(118، 119).

[3]– ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص(123، 124).

[4]– ينظر: فراسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص8.

وهو ما يعني أن الدراسة التداولية تبحث عن«... المعنى الذي يقصده المرسل، وقدرته على إفهام المرسل إليه بدرجة تتجاوز معنى ما قاله »[1] أي تتجاوز الدلالة اللغوية المباشرة إلى المعاني الضمنية والمضمرة والمتعددة، والبحث عنها عبر الاستدلال وتأويل هذه الدلالة من قبل المتلقي انطلاقا من السياقات المختلفة، التي أسهمت في إنتاج الخطاب من جهة، ومقامه المحدد من جهة أخرى.

مما سبق ذكره، يمكنا التأكيد على أن الملفوظات هي أساس الإستعمال اللغوي وليست الجملة لأنه «... لم يحصل أن سمعنا جزءا من اللغة لم ينتجه متكلّم معين لجمهور ما، في مناسبة معينة، كما أنّ كثيرا من الملفوظات، لا تنتسب إلى نموذج الجملة، فقد تكون الملفوظات مكوّنة من عبارة مثل: "فنجان من القهوة" وتؤدي معني: أعطني فنجان قهوة ، أو من كلمة مثل" آسف" أو من وحدات، لا تُشكّل أجزاء من الجملة مثل: "آه مرحبا" »[2]... لذلك توصف التداولية بأنها لسانيات الكلام مقابل لسانيات الجملة.

[1]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص22.

[2]–نفسه، ص28.

ثالثا–مبادئ التداولية:

ذهب كثير من الدارسين إلى صعوبة الإلمام بقضايا ومبادئ التداولية، ويردون ذلك حسب رأيهم إلى اتساع مجال اللسانيات التداولية وتعدّد بيئة نشأتها وذلك لأنها أكثر اندماجا مع علوم أخرى، كالسميائيات، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا وغيرها.

ومن أبرز القضايا التي تدرسها اللسانيات التداولية: أفعال الكلام، متضمنات القول، الاستلزام الحواري، بالإضافة إلى قضايا أخرى كالقصدية والسياق، ونظرية الملائمة والاشاريات والحجاج.

1- أفعال الكلام:

وهي أهم مجالات التداولية ونواتها الرئيسية، بل التداولية في نشأتها كانت مرادفة للأفعال الكلامية[1]، ونعني بهذا أن الناس عندما يتحدثون لا ينشؤون ألفاظا فحسب، وإنّما ينجزون أفعالا عبر هذه الألفاظ. فاللغة لها وظائف أخرى بحسب السياق، وتستخدم الكلام ذاته لتأدية فعل بعينه. وتنقسم أفعال الكلام إلى ثلاثة أقسام نذكرها كالآتي[2]:

أ- **فعل القول (أو الفعل اللغوي) Acte locutoire** : يراد به إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم و ذات دلالة، و فعل القول يشتمل بالضرورة على أفعال لغوية فرعية، و هي المستويات اللسانية: المستوي الصوتي، والمستوي التركيبي، والمستوي الدلالي، ولكن أوستين

[1]- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص40.

[2]- محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة، ألإسكندرية، مصر، ط1، 2002م، ص 15.

يسميها أفعالا: الفعل الصوتي وهو التلفظ بسلسلة من الأصوات المنتمية إلى لغة معينة، وأما الفعل التركيب فيؤلف مفردات طبقا لقواعد لغة معينة، وأما الفعل الدلالي فهو توظيف هذه الأفعال حسب معان وإحالات محددة، فقولنا مثلا: إنها تمطر، يمكن أن يفهم معنى الجملة، ومع ذلك لا ندري أهي: إخبار بـ"أنها ستمطر"، أم تحذير من "عواقب الخروج في رحلة" أم "أمر بحمل مظلة" أم غير ذلك....إلا بالرجوع إلى قرائن السياق، لتحديد "قصد" المتكلم أو "غرضه" من الكلام[1].

ب- الفعل المتضمن في القول Act illocutoire :

وهو الفعل ألإنجازي الحقيقي إذ أنه عمل ينجز بقول ما، وهذا الصنف من الأفعال الكلامية هو المقصود من النظرية برمتها. ولذا اقترح "أوستين" تسميته الوظائف اللسانية خلف هذه الأفعال: القوى ألإنجازية، ومن أمثلة ذلك: السؤال، إجابة، إصدار تأكيد أو تحذير، وعد، أمر، شهادة في محكمة... فالفرق بين الفعل الأول (أ) والفعل الثاني (ب) هو أن الثاني قيام بفعل ضمن قول شيء، في المقابل الأول الذي هو مجرد قول شيء.

[1]- ينظر: فان ديك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي و التداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص227.

ج- الفعل الناتج عن القول Acte Perlocutoire :

يرى "أوستين" أنه مع القيام بفعل القول، وما يصحبه من فعل متضمن في القول (القوة)، فقد يكون الفاعل (وهو هنا الشخص المتكلم) قائما بفعل ثالث، هو التسبب في نشوء آثار في المشاعر والفكر، ومن أمثلة تلك الآثار: الإقناع، التضليل، الإرشاد... و يسميه "أوستين" الفعل الناتج عن القول، وسماه بعضهم "الفعل التأثيري".

2-متضمنات القول les implicites:

هو مفهوم تداولي إجرائي يتعلق برصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب تحكمها ظروف الخطاب العامة، كسياق الحال وغيره ومن أهمها:

أ-الإفتراض المسبق :présupposition':

هي كل تواصل لساني، ينطلق من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها، تشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل، وهي محتواه ضمن السياقات والبنى التركيبية العامة:

ففي الملفوظ الأول مثلا: أغلق النافذة.

وفي الملفوظ الثاني : لا تغلق النافذة.

في الملفوظين كليهما خلفية "افتراض مسبق" مضمونها أن النافذة مفتوحة.

ويري التوليديون أن الافتراضات المسبقة ذات أهمية قصوى في عملية التواصل والإبلاغ وفي التعليمات 'didactiqud" كذلك، إذ لا يمكن تعليم الطفل معلومة جديدة إلا بافتراض وجود أساس سابق يتم الانطلاق منه والبناء عليه.

ب-الأقوال المضمرة les sous-entendus :

هي النمط الثاني من متضمنات القول، وترتبط بوضعية الخطاب ومقامه. على عكس الافتراض المسبق الذي يحدد على أساس معطيات لغوية، والقول المضمر هو كتلة المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها، ولكن تحقيقها في الواقع يبقي رهن خصوصيات سياق الحديث، و مثال ذلك قول القائل: إن السماء ممطرة، إن السامع لهذا الملفوظ قد يعتقد أن القائل أراد أن يدعوه إلى :

-المكوث في بيته.

-أو الإسراع إلى عمله حتى لا يفوته الموعد.

-أو الانتظار والتريث حتى يتوقف المطر.

أو عدم نسيان مظلته عند الخروج..... وقائمة التأويلات مفتوحة مع تعدد السياقات، والطبقات المقامية التي ينجز ضمنها الخطاب، والفرق بينه وبين الافتراض المسبق؛ أن الأول وليد السياق الكلامي والثاني وليد ملابسات الخطاب.

3-الاستلزام الحواري:

يعد الإستلزام الحواري من أبرز المفاهيم في الدرس التداولي الغربي، وتعدّ نظرية الإستلزام الحواري من أكثر النظريات التداولية المطبقة على الخطابات.

ويعود الفضل في نشأتها إلى المحاضرات التي ألقاها "غرايس"grice " في جامعة هارفارد سنة 1967م، فقد قدّم في تصوّره لهذا الجانب من الدّراسة والأسس المنهجيّة العامة التي يقوم عليها.[1]

وقد حاول أن يضع نحوا قائما على أسس تداولية للخطاب، تأخذ بعين الاعتبار كل الأبعاد المؤسسة لعملية التخاطب، فهو يؤكد أن التأويل الدلالي للعبارات في اللغات الطبيعية أمر متعذر إذا نظر فيه فقط إلى الشكل الظاهري[2].

ولقد قام "غرايس" ببلورة مبدأ عام سماه مبدأ التعاون، وهو مبدأ يقضي بتعاون المتخاطبين المرسل والمرسل إليه، وهو مبدأ عام يضمّ تحته أربعة قواعد فرعيّة: قاعدة الكم، قاعدة الكيف، قاعدة العلاقة أو الورود والملائمة، قاعدة الجهة أو الكيفية[3].

[1]- ينظر: فان ديك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي و التداولي، ص32.

[2]- ينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2011م، ص15.

[3]- ينظر: نفسه، ص100.

وتعد هذه القواعد التي صاغها "غرايس" أساسيّة في كل حوار بين المتخاطبين أو المتحاورين وهي تستهدف وجهة نظره، وقد وقع التركيز عليها؛ لأن كلامنا في الحقيقة ذو بعد حواري بالأساس، وهذا البعد يشمل جميع أنواع الخطاب الشفهي والمكتوب.

فاستعمال جملة "ناولني الكتاب من فضلك" المنجزة في مقام محدّد، يخرج بمعناها من الطلب (الأمر) إلى معنى الالتماس، وهو ما تفيده القرينة من فضلك.[1]

وحسب "غرايس" فأنّه لابد من احترام القواعد الأربعة لضبط مسار الحوار لأنّه؛ في حال ما تم تجاوز هذه القواعد أو الإخلال بها، فإنه يؤدّي إلى اختلال العملية التواصليّة (الحوارية)، بالإضافة إلى مبدأ التعاون الذي هو سبيل البلوغ مقاصدنا.

4- الحجاج:

ارتبط الحجاج بالتداولية؛ لأن الخطاب الحجاجي يفترض وجود متكلم وسامع حيث تكون نية أحدهما التأثير في الآخر، و هذا هو شأن التداولية التي تحاول الإجابة عن الأسئلة المطروحة من قبيل: من يتكلم؟ إلى من يتكلم؟ ماذا يقول حين يتكلم؟ ماذا يقصد من كلامه؟. لذا نجد أن الحجاج ارتبط بالبعد التداولي على عدة مستويات، ذلك أن الحجاج يعتبر ظاهرة متجسدة في الخطاب الحجاجي أو الصورة الثنائية الاستدلالية، فإننا مبدئياً سنكون بصدد أفعال كلامية لها مرجعية مقالية، مقامية، مشتركة بين المتكلم والمستمع أو بين المخاطب و المخاطب.

[1]- ينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص (18، 19).

رابعا–جهود العرب القدامى التي تصب في التداولية:

ذهب كثير من العلماء والباحثين إلى أن الفكر العربي القديم كان فكرا تداوليا، حيث وقف هؤلاء العلماء على حضور كثير من مبادئ التداولية المعاصرة في التراث العربي القديم، وإن كان ذلك بمصطلحات مغايرة، وذلك بداية من طلائع الدرس اللغوي العربي مع سيبويه، انتهاء إلى النقاد واللغويين والبلاغيين المعاصرين.

وعن سبق العرب إلى معرفة أصول التداولية، يقول محمد سويرتي: « إن النحاة والفلاسفة المسلمين والبلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي، قبل أن يذيع صيته بصفته فلسفة وعلما ورؤية واتجاها أمريكيا وأوروبيا، فقد وظف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوعة »[1].

فجل مبادئ التداولية نجدها مبثوثة في الفكر العربي الأصيل، فالعرب قد سبقوا إلى ممارسة الفكر التداولي، قبل ظهوره كمنهج للأمريكيين والأوروبيين.

ويعد علم البلاغة وعلم النحو والنقد والخطابة، من أهم مصادر التفكير التداولي اللغوي عند العرب، بالإضافة إلى ما قدمه علماء الأصول الذين يمثلون– إلى جانب البلاغيين– إتجاها فريدا في التراث العربي، يربط بين الخصائص الصورية للموضوع وخصائصه التداولية.

[1]– محمد سويرتي، اللغة ودلالاتها، عالم الفكر، الكويت، ط3، 2000م، ص30.

ويذهب الدارسون المحدثون، إلى أن ما قدمه العرب في باب "الخبر والإنشاء" مثلا، سواء أكانوا لغويين أم بلاغيين أم أصوليين، لا يختلف عما تعرضه نظرية الأفعال الكلامية الحديثة التي قدمها "أوستين" وطورها "سيرل" ذلك أن البلاغيين مثلا، تناولوا في باب المعاني "الخبر والإنشاء" وعلاقتهما بالخارج، « فالخبر ما احتمل الصدق أو الكذب بالنظر إلى درجة مطابقته للخارج أو مخالفته»[1]. أما الإنشاء فلا يرتبط مفهومه بالصدق والكذب وتميز مدلوله يتحقق بمجرد التعلق به، وهي الفكرة نفسها التي عرضها "أوستين" في مبحث الأفعال الكلامية؛ حيث ثار على الوضعيين، وميز بين نوعين من الأفعال، التقريرية والإنجازية، من حيث درجة تحققها في الخارج، وموقف المتكلم... يقول أحمد المتوكل في ذلك: « من المعلوم أن الفكر اللغوي العربي يتضمن ثنائية "الخبر/ الإنشاء" التي تشبه إلى حد بعيد الثنائية "الأوستينية" (الوصف/ الإنجاز)، كما يدل ذلك تعريف القدماء للخبر والإنشاء»[2].

لقد تنبه علماؤنا إلى أن اللغة هي استعمال الناطقين بها، أي إحداثهم لفظا معين لتأدية معنى معين، في حال خطاب يقتضي هذا المعنى وهذا اللفظ، فلم يغفلوا عن ضرورة الربط بين الخطاب وملابساته، فقد ميزوا بين المقامات المختلفة في الاستعمال الفعلي للغة، وربطوا بين أشكال الخطاب الظاهرة واستعمالاته المختلفة جريا على مبدأ، اللسان وضع واستعمال[3].

[1]– خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية للدرس العربي القديم، ص114.

[2]– نواري سعودي، في تداولية الخطاب الأدبي والإجراءات، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط1، 2009م، ص32.

[3]– ينظر: مسعود صحرواي، التداولية عند العلماء العرب، ص104.

وقد تعددت المصادر العربية التي تجلى من خلالها الفكر التداولي؛ من نحو وبلاغة وأصول... ولا يسعنا المقام لذكرها جميعا، إلا أننا نذكر من علمائها على سبيل المثال لا الحصر: الجاحظ، وتعريفه للبيان قائلا: « إذن هو القدرة على الإبانة والكشف عما في النفس والإفصاح عما في الضمير بطريقة اللسان والألفاظ ومن هنا يتحقق غرض الفهم والإفهام الذي يرتبط في الأصل بالمتكلم ودوره في توضيح ما خفي من معان للسامع »[1].

وتتضح غاية التواصل باللغة في (الفهم والإفهام)، ومحتوى كتاب (البيان والتبيين)، يُبرز اهتمام الجاحظ بدراسة الاستعمالات المختلفة للمعنى من قبل الذوات المتكلمة، ودراسة اللغة في تحققاتها المقامية المختلفة. من منطلق أنَّ لكل مقام مقالاً، ومن منطلق آخر؛ توظف فيه كل ملكات المخاطب لإيصال مقاصده إلى من يُخاطبه. وإذا أدركنا أنّ التداولية في أبسط تعريفاتها مما تم الإجماع عليه « هي علم الاستعمال اللغوي »[2]، عرفنا أنّ الجاحظ قد كان له فضل السبق في عرض أبرز معالم الدرس التداولي الحديث.

ويضع "الجاحظ" الأساس لتداوليته، بشرح الغاية الأساسية التي تتأسس عليها الرسالة اللغوية فيقول: « والبيان اسمٌ جامع لكلِّ شيءٍ كشف لك قناع المعنى، وهتكَ الحِجَاب دونَ الضمير حتّى يُفْضِي السّامعُ إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان أي كان الدليل؛ لأنّ

[1]– فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، (د ط)، 2005م، ص122.

[2]– حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011م، ص3.

مَدَارَ الأمرِ والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنَّما هو الفَهْمُ والإفهام؛ فبأي شيءٍ بلغت الإفهام وأوضَحْتَ عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[1]. فتكون غاية التواصل اللغوي "الفهم والإفهام"، ويُبين هذا القول عناصر العمليَّة الاتصالية التي ترجع إلى: القائل والسَّامع ليظهر منها ما يدلُّ على استعمال (التلفظ) دون سواه من وسائل التواصل، (وكل شيء كشف القناع) يُوسع مجال التلفظ ليشمل الإشارة، والسياق، والرمز والكناية، والتعريض... إلخ، شرط أن يوضح المعنى المتضمَّن، والغاية التي يجري إليها طرفا الخطاب (الفهم والإفهام)، وواضح ما يتطلبه كلُّ ذلك من وضع استراتيجيات تخاطبيَّة، وتأثير كلّ منهما في الآخر... والمعلوم أنَّ الاستراتيجيَّة التَّخاطبيَّة هي وسيلة تحقيق المقاصد، وقد أدركت التداوليَّة أنَّه يستحيل فهم دلالات الخطاب الصَّريحة منها والضّمنيَّة، ما لم نفهم المقاصد التي وجدت وراء إنتاجه.

لكن الحديث عن أثر الجاحظ في ذلك البعد، لا يعني إطلاقا بأن الأمر مقصور عليه، بل هناك جهود عربية أخرى، لا تقل شأنا ولا مستوى عن الإسهام في صياغة نظرية أدبية بلاغية، تنطوي على مشروع الدراسة التداولية للغة والخطاب، على نحو: ابن قتيبة، وحازم القرطاجني، وابن سنان الخفاجي، وعبد القاهر الجرجاني، وأبو يعقوب السكاكي، وأبو بكر عبد الرحمن بن خلدون، وأبو الفتح بن جني، وغيرهم الذين حاولوا جميعا تسليط الضوء على ظاهرة الخطاب والإقناع والتأثير ومقتضى الحال وأداء المخاطب وشروط خطابه، وطرائق التلقي لدى المخاطب

[1]– الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: عبد السَّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1998م ، ص76.

ثم مطابقة الخطاب لمقتضى الظاهر، أو ما يخالفه وغير ذلك من العناصر الجوهرية في النظام التخاطبي.

ومن هنا، يمكن القول أن الدرس اللغوي القديم هو الأرضية التي مهدت لظهور منهج جدد في دراسة اللغة بعنوان واضح وهو "التداولية" التي تهتم بدراسة اللغة حالة الاستعمال.

الفـــــصل الأول: الحجاج والطباق دراسة تأصيلة في الماهية والأنواع

أولا: تعريف الحجاج

ثانيا: الحجة

ثالثا: أنواع الحجاج

رابعا: تقنيات الحجاج وآلياته

خامسا: الحجاج واللغة

سادسا: الطباق تعريفه أنواعه وأهميته

حظي الحجاج باهتمام الكثير من الباحثين والبلاغيين والمهتمين بنظرية تحليل الخطاب، خاصة في العصر الحديث، ويعود ذلك لحيويته في معالجة النصوص الشفاهية والمكتوبة التي تتطلب متلقيًا حاضرا أو غائبا، وينفتح الحجاج على حقول معرفية واسعة كالفلسفة واللسانيات ونظريات التواصل، وعلم النفس، وعلم الاجتماع... كما امتزج الحجاج قديما بالمنطق والفلسفة والجدل والبلاغة والخطابة، خاصة عند اليونان كما في محاورات أفلاطون، وما جاء في كتاب الخطابة لأرسطو، أما حديثا فقد عرف الحجاج منذ نهاية عقد الخمسينيات في القرن العشرين صحوة نوعية، فكانت الدعوة لما سمي بالبلاغة الجديدة، والتي نتج عنها الاهتمام بالجانب الإقناعي –بلاغة الاقناع– الذي يرتكز على ثقافة التواصل والإقناع، من خلال نظرية الحجاج بنظرياتها و توجهاتها المختلفة.

أولا– تعريف الحجاج:

1–لغة:

وردت مادة (ح ج ج) بمعان عدة في المعاجم العربية، ومن تلك المعاني:

– معنى الغلبة والظفر، وجاء ذلك في معجم "مقاييس اللغة" لابن فارس (ت 395هـ) يقال: « حَاجَجْتُ فُلَانًا فَحَجَجْتُه أَي غلبته بالحجة وذلك الظَّفر يكون عند الخصوم والجُمْع حَجَج والمصدر حِجَاج »[1]. فهو غلبة الخصم والظفر عليه.

– وجاء "الحجاج" بمعنى الحجة والبرهان، ففي لسان العرب "لابن منظور" (ت 711هـ) حيث يقال: « حاجَجْتُه أُحاجه حجاجاً ومُحاجَّةً حَتَّى حَجَجْتُه أَي غَلَبْتُه بالحُجَجِ الَّتِي أَدْلَيْتُ بها.... والحُجَّة: البُرهان؛ وَقِيلَ: الحُجَّة مَا دُوفِعَ بِهِ الْخَصْمُ ؛... وَهُوَ رَجُلٌ محجاج أَي جَدِلٌ... والحَجَّةُ: الدَّلِيلُ وَالْبُرْهَانُ. يُقَالُ حاجَجْتُه فأَنا مُحامج وحَجِيج... أَي أَغْلِبُه بالحجة»[2].

وبهذا يكون الحجاج عند ابن منظور مرادفا للجدل، أي مقابلة الحجة بالحجة، وكذلك يدور حول معاني البراهين والأدلة.

– وجاء"الحجاج" بمعنى الاختلاف والتردد والغلبة.

يقول: " الزبيدي" (ت 1205هـ) « الحج (الغَلَبَةُ بِالحُجَّةِ) يقال: حَجَّهُ يَحجَّهُ حَبًّا إذا غَلَبَه على حُجَّته... والحَج كَثْرَةُ الاختلاف والتَّرَدُّدِ»[3].

[1]– ابن فارس أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، تح: محمد عوض مرعب وفاطمة محمّد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 2001م ، مادة (ح ج ج).

[2]– ابن منظور، لسان العرب، ج2، مادة (ح ج ج).

[3]– الزبيدي محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ج5، (د ط)، 1969م، مادة (ح ج ج).

من خلال هذه التعريفات القاموسية للفظة الحجاج يظهر جليا لنا أن هذه اللفظة قد استخدمت في إطار الاستعمالات المتداولة في التواصل اللغوي والتخاطب عند العرب، بمعنى المخاصمة والجدل والغلبة بالحجة والبرهان، فهذه الدلالات استعملت في سياق تواصلي يحمل في ثنياه التأثير والغلبة.

وقد ورد الحجاج في القرءان الكريم في حاملا نفس المعاني اللغوية من المخاصمة والجدل والغلبة والبرهان منها قوله تعالى: ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 66].

وقوله: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: 81].

وقوله:﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى: 14].

أما في المعاجم الغربية فإننا نجد أن لفظ الحجاج يقابله في الفرنسية " Argumentation" وهي تشير إلى عدة معان متقاربة للتي في اللغة العربية فحسب قاموس" روبير" " Le Grand Robert" « الحجاج هو القيام باستعمال الحجج ، أو مجموعة من الحجج التي تهدف إلى تحقيق نتيجة واحدة أو هو فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة معينة»[1]

[1]– Le Grand Robert, Dictionnaire de la langue Française, Paris 1989.

و يشير المصطلح (Argue) في اللغة الإنجليزية الحديثة إلى وجود اختلاف بين طرفين، ومحاولة كل واحد منهما إقناع الآخر بوجهة نظره، من خلال تقديم الأسباب أو العلل التي يراها حجة مدعمة أو داحضة لفكرة أو رأي أو سلوك؛ حيث ورد في قاموس "كامبردج" « أن الحجاج هو الحجة التي تعلل أو تبرر مساندتك ومعارضتك لفكرة ما»[1].

ومن خلال هذه التعاريف القاموسية نجد أن دلالة اللفظ " Argumentation" لم تخرج عن إطار استعمال الحجة، إما للدفاع أو للاعتراض على فكرة معينة، وهي قريبة من معناها في العربية.

2-التعريف الاصطلاحي:

2-1-الحجاج عند الغرب قديما:

اشتهر السفسطائيون بأنّهم أصحاب الذكاء والحكمة والمعرفة، باعتمادهم سلطة الخطابة لنشر آرائهم وأفكارهم، بالإضافة إلى إتقان الاحتجاج لها، حيث كانت غاياتهم اكتساح الأفكار وجذب الكثير من الأنصار، سواء كان ذلك بالحق أو الباطل، ولذلك غلبت عليهم صفة الخطباء، وعند السفسطائيون« الخطيب البليغ يستطيع أن ينصر الحق كما يستطيع أن ينصر الباطل، بقوة حججه أو براعته بالأقيسة و القضايا الظاهر منها والمضمر»[2].

[1]-Cambridge Advanced Learnes: Dictionory, Combridge UniversityPress 2ed Pub, 2004, P5

[2]- عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، ط1، 2013م، ص29.

أما أفلاطون ومن خلال محاورته مع " قرجياس" و "اليزياس" في موضوع الخطابة ووظيفتها، فقد ربط منهج البحث، في صلة القول بالقيم، ورأى أن القول الخطابي (القول الحجاجي) يكون بمعيار العلم والخير. وهو عنده صناعة ملوكية (Art royale) يمثل ذروة العلوم وتاجها وبه تبلغ الحقيقة، وهو منهج في الفكر والقول جميعاً[1]. وأما الخطابة عنده فهي صناعة قيادة النفوس بالقول لا في المحاكم والمجالس العامة بل في الاجتماعات الخاصة أيضا[2].

فأفلاطون يرى أن مقصد الحجاج ينطلق من الخطابة التي تعتمد على دعامتين أساسيتين هما: العلم والخير، على عكس الحجاج عند السوفسطائيين الذي يقوم على الخداع والتمويه.

كما أن كتاب "الخطابة" لأرسطو يُعَدُّ من أقدم الكتب التي اهتمت بالبرهنة والإقناع، حيث أن مهمة الخطابة بالنسبة إليه هي الإقناع بالحجج المقنعة والقوية، حيث عرفها بقوله: « الريطورية وهي قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من لأمور المفردة»[3].

وعليه فإنّ الإقناع يعد مركز الخطابة و جوهرها و كما أنّ الإقناع يتوقف أيضا على القول الذي يبنى بالحجج والأدلة المقنعة في قوله: « يحدث عن الكلام نفسه إذا أثبتنا حقيقة أو شبه مقنعة للحالة المطلوبة»[1].

---

[1]– ينظر: هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، (مقال) ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص81.

[2]– ينظر: عبد الرحمان بن الجوزي، الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، تح: محمود بن محمد السيد الدغيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 1995م، ص99.

[3]– محمد مندور، الأدب وفنونه، نهضة مصر، مصر، ط5 ، 2006م، ص154.

ولقد أعطى "أرسطو" مراحل أربعة- جعلها خطاطة بنى عليها كتابه "الخطابة" في إنتاج القول الحجاجي تمثلت في:

- مرحلة البحث عن مواد الحجاج.

- مرحلة ترتيب أجزاء القول.

- مرحلة التحسينات أو اختيار الألفاظ للتعبيرات.

- مرحلة الأخذ بالوجوه أو الإلقاء.

وبهذا العمل الذي قدمه "أرسطو" في مجال الخطابة والحجاج صار أستاذاً لمن بحث بعده في موضوع الخطابة من القدماء وغيرهم، حيث مثلت نظريته في التأثير وما يقبله الجمهور أو يرفضه أهمية كبيرة عند المحدثين باعتبارها دعامة تقوم عليها دراساتهم في البلاغة الجديدة.

2-2-الحجاج عند الغرب حديثا:

لقد أعطت الدراسات الغربية الحديثة للحجاج تصورا أدق من التصور الذي كان عليه في الدراسات القديمة، وذلك من خلال تعديلات وإضافات جعلت من الحجاج نظرية غربية حديثة فدرست الحجاج من جانبين اثنين: جانب بلاغي تمثل في مشروع "بريلمان وتيتكاه"، وجانب

[1]- أرسطو طاليس، الخطابة، تح: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، (د ط)، 1989م، ص9.

تداولي تمثله دراسات "ديكرو" إضافة إلى غيرهم من الباحثين الذين أسسوا لما يعرف بالبلاغة الجديدة.

أ- الحجاج عند بريلمان وتيتيكا (Prelman/ Tyteca):

عرف "بريلمان" "وتيتيكا" الحجاج تعريفات عدة في مواضع مختلفة من كتابهما أهمها قولهما: « الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن يزيد في درجة التسليم»[1].

فالهدف من الحجاج عندهما هو دراسة الإجراءات المعتمدة في إثارة ذهن المتلقي واستمالته والتأثير عليه بشكل يؤدي به إلى الاقتناع.

ب- الحجاج عند "ديكرو" "وأنسكومبر" (Ducrot/ Ansconbere) :

تحدث "ديكرو" عن الحجاج في كتابه المشترك مع زميله "أنسكومبر" ليؤكدا أن الحجاج يكمن في بنية اللغة، لا يمكن فصله عنها لأنّه متجذّرٌ فيها، ويتمّ بتقديم المتكلّم قولا (ق1) أو (مجموعة من الأقوال)، يفضي إلى التسليم بقول آخر (ق2) أو (مجموعة من الأقوال)، سواء

[1]-عبد الله صوله، الحجاج أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكا، ص292.

أكان القول (ق2) صريحًا أم ضمنيًّا، فعملية قبول (ق2) على أنّه نتيجة للحجّة (ق1) تسمّى عملية المحاججة[1].

وبذلك يتضح وجود علاقة اتصالية بين الحجّة والقول لا يمكن فصلها، فاللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، مما يؤكد حجاجية الكلام (أنت تتكلم- أنت تحاجج)، وهناك مؤشرات عدة لهذه الوظيفة في بنية الأقوال[2].

ومعنى ذلك أنّ الحجاج يتضمن إنجازا لعملين: الأول يتعلق بما يقدمه القول من الحجج، والثاني ما يحيل عليه هذا القول من استنتاجات، وهذا يعني أن الحجاج مرتبط بالاستنتاج الذي ينشأ من داخل اللغة لا من خارجها.

ويُركّز ايميرين وجروتندروست (rob. grootemdorst/ fransfan. Emeren) على أهمية السياق الذي تتولد فيه عملية الحجاج، وانطلاقاً من ذلك فالحجاج: « نشاط اجتماعي وفكري يهدف إلى الحصول على موافقة الملتقى»[3].

ويرى بيير أوليرون (Pierre- Ieron) في الحجاج نشاطاً تواصلياً بالدرجة الأولى، إذ يستحضر في تعريفه شروط العملية التواصلية بقوله: « الآلية التي من خلالها يأخذ شخص أو مجموعة

---

[1]- ينظر:عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، ط2، 2007م، ص33.

[2]- ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م، ص(15، 16).

[3]- فليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 2007م، ص101.

أشخاص على عاتقه قيادة متلق إلى تبني موقف وذلك بتقديم تأكيدات حجج تهدف إلى توضيح صلاحية هذا الموقف»[1].

3-الحجاج عند العرب:

3-1-الحجاج عند العرب القدامى:

الأساليب الحجاجية واضحة في القرآن الكريم، وأقوال رسول الله-صلى الله عليه وسلم- كما نجد كثيرا من النماذج التي تجسد استعمال هذه الإستراتيجية في خطابات سبقت هذه الفترة بكثير، وتمثل ذلك في الخطابات والمنافرات القبلية في العصر الجاهلي، ثم تنامت الخطابات التي تجسد هذه الإستراتيجية بعد البعثة المحمدية في كثير من السياقات، وتبلورت في كثير من العلوم كعلم الفقه وأصوله، وعلم الكلام، وقد شكل هذا الأخير الأرضية الخصبة الذي نمت بين أحضانه العديد من المناظرات والنقاشات الحادة، بين الفرق الإسلامية في المسائل الخلافية العقدية خاصة، والتي كان لها أثر بالغ في تبيين قواعد الحجاج وطرقه وأصوله وآدابه، لهدف إقناع الخصم وإلزامه بالحجة. وقد اشتهرت المعتزلة كفرقة كلامية بهذا النوع من الجدل والمناظرات وذلك باعتمادها على العقل الذي يستند على صور الأقيسة العقلية في الأسلوب الحجاجي، ومن أشهر إعلامها الزمخشري، والجاحظ الذي تميز بنظريته الحجاجية.

[1]- فليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص99.

أن أصول نظرية الحجاج عند الجاحظ (ت 255هـ) تعود إلى علم الكلام، القائم على البرهنة العقلية على المسائل، المتعلقة بالإلهيات والعقائد، حيث يتوجب على المتكلم أن يُؤسس مواقفه الكلامية على براهين نظرية داعمة ومؤيدة، فالنزعة الكلامية تظهر جليا من خلال خطابات الجاحظ ومواقفه، في كل ميادين فنون القول. ويتضح لنا الأمر أكثر من خلال مؤلفاته الأدبية التي صاحبت زمنا صاخبا بالجدل والمناظرات وتعدد الاتجاهات الفكرية، إذ يمثل كتابه "البيان والتبيين" مشروعا متكاملا في البلاغة وعلم الكلام، وعناية الجاحظ بالبيان نابعة من عنايته بوظيفية الخطاب ونجاعته، فتناوله في تحقيق المقاصد والغايات وإنجاز الحِجَاج وتحقيق التأثير في النفوس، حيث يقول أنَّ: « مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيءٍ بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك البيان في ذلك الموضع»[1] فالبيان عند "الجاحظ"– من خلال النصوص التي أوردها في كشف غموض البيان لا يخرج في مفهومه عن خاصتي الفهم والإفهام، "وليس الفهم والإفهام بالمعنى التعليمي هو ما تعبر به هذه النصوص، بل الواقع أنها تتجه اتجاها إقناعيا ممتدا بين قطبي الاستمالة والاضطراب»[2]

كما اهتم الجاحظ بالفعل اللغوي، وعده الأساس لكل عملية بيانية حجاجية، فالكلام في نظره لا يمكن تمييزه عن البلاغة، فهو يضطلع في حياة الفرد بوظيفتين أساسيتين هما:

أولا: الوظيفة الخطابية وما يتصل بها من إلقاء وإقناع واحتجاج ومنازعة ومناورة.

[1]– سرحان هيثم، الحجاج عند الجاحظ بحث في المرجعيات والنصيات والآليات، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة، العدد 115، 2011م، ص58.

[2]– الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ج1، ص76.

ثانيا: الوظيفة البيانية البيان والتبيين أو الفهم والإفهام[1].

فمفهوم البيان عنده تتنازعه وظيفتان إفهامية وحججاية (إقناعية).

ومن جهة أخرى نجد السكاكي (ت 626هـ) قد اهتم بدراسة بيان العبارة مقعدا بذلك لعلم البيان. إن علم البيان عنده هو اعتبار الملازمات بين المعاني، وموضوعه الصيغ التي لا تقف عند دلالتها الوضعية؛ بل تتجاوزها إلى دلالات عقلية ، فالتجاوز يتم عن طريق اللزوم العقلي والاعتقادي.

وتتمثل أنواع الملازمات في:

– الانتقال من الملزوم إلى اللازم مثل: رعينا غيثا، والمراد لازمه وهو النبت، ويمثل هذا الانتقال المجاز.

– الانتقال من اللازم إلى الملزوم مثل: فلان طويل النجاد، والمراد طويل القامة الذي هو ملزوم طول النجاد، ويمثل هذا الانتقال الكناية.

– الانتقال من الملزوم إلى اللازم، مع تقدمة تشبيه شيء بذلك الملزوم في لازم له، وتمثله الاستعارة.

[1]–عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال خصائصه الأسلوبية، ص12.

وهكذا تحددت فنون علم البيان عند السكاكي، في التشبيه والمجاز(المرسل والاستعاري) والكناية[1].

إن الصورة البيانية (الكناية ، التشبيه، الاستعارة) مقدمة كبرى تؤدي في نهاية الأمر إلى استنتاج باصطلاح المناطقة، أو معنى المعنى باصطلاح عبد القاهر الجرجاني، أو دلالة عقلية باصطلاح السكاكي؛ مما يجعل البيان ضربا من ضروب الاستدلال، قوامه البيئة وغايته الإقناع.

إذ أن الصورة البيانية من أساليب الحجاج في البلاغة العربية؛ ترجع وظيفتها كلها إلى التأثير والإقناع؛ بحيث يهدف المخاطب إلى حمل المتلقي على التصديق بمدلول والتسليم به والركون إليه، ويتميز هذا الإقناع بأنه نظري خيالي يقوم على الحجة، ويسعى إلى إثبات الرأي بالدليل[2]. فلا بد هنا ألا نغفل عن الصور البيانية كأداة حجاجية ودورها في الإقناع.

3-2-الحجاج عند العرب المعاصرين:

تناول العرب المعاصرون موضوع الحجاج من نواح متعددة وقد إنبنت بعض الأعمال العربية على المزاوجة بين العربي القديم والغربي الحديث، ومن أبرز هذه الأعمال ما توصل إليه "طه عبد الرحمن" في عدد من دراساته ومنها كتابه في "أصول الحوار وتجديد علم الكلام " الذي

[1]-جميل عبد الحميد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ص(162، 163).

[2]- محمد الواسطي، أساليب الحجاج في البلاغة العربية، (مقال) ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد: حافظ إسماعيلي علوي عالم الكتب الحديث إربد الأردن، ط1، 2010م، ج3، ص154.

عقد فيه بابا معنونا بـ "الخطاب والحجاج" أكد فيه على أن الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية انطلاقا من أنه لا خطاب بدون حجاج»[1].

والحجاج في اصطلاح طه عبد الرحمن، هو كل منطوق موجه للغير لإفهامه. فيقول فيه: « حد الحجاج أنه كل منطوق به، موجّه إلى الغير لإفهامه ودعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها»[2].

فالحجاج في نظره، هو الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل فيها اللغة ويتجسد من خلالها الإقناع، ومن ثم يكون الفهم والإفهام على حد قول الجاحظ، فالحجاج يقوم على طرفين مرسل ومستقبل، يقوم احدهما بإبلاغ احدهما شيئا ما، معززا بحجة لغرض إفهامه؛ بينما يحق للطرف الآخر الرفض أو الإذعان.

ومن ناحية أخرى فقد اعتمدت أغلب الدراسات العربية المعاصرة، على استثمار النظريات الغربية أو ترجمتها، وقد أسهم أبو بكر العزاوي في هذا المضمار بعدد من المقالات، التي توزعت بين دراسة الشعر والنثر دراسة حجاجية، ويرى "العزاوي" أنه لأخذ فكرة واضحة عن مفهوم الحجاج

[1]– طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1998م، ص66.

[2]– طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ص 259.

ينبغي مقارنته بمفهوم البرهنة أو الاستدلال وأن « الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنتاج تسلسلات استنتاجيه داخل الخطاب»[1].

والحجاج عملية تواصلية لغوية، يعتمد على أسس منطقية واضحة؛ ليصل إلى الغاية المنشودة وهي الإقناع، حيث يعرفه كل من حافظ إسماعيلي علوي ومحمد أسيداه بأنه: « عملية لسانية اتصالية الغاية منها الإقناع، الذي يعتمد على وسائل منطقية ولغوية خاصة في غاية الوضوح»[2].

فالحجاج من خلال ما سبق هو عبارة عن مسلمات خطابية قابلة للرفض أو القبول، مدعمة بحجج وبراهين بهدف الإفحام. وهو عملية تواصلية تأثيرية جوهرها قضية ما، تمثل منطلق العملية الحجاجية، طرفاها مُخاطِب مُؤَثر بحججه، ومُخاطَب متأثر بما يحمله عنصر الخطاب.

4-الحجة: تعرف بأنها: « ما دلّ به على صحة الدعوى»[3]، وهي تهدف إلى إثبات أو نفي تلك الدعوى، وقد تكون الحجّة نصية؛ فيراد بها: الحجة التي تبرز على صعيد النص أو الخطاب كالقياس، والمثل، والشواهد النصية؛ كالقرآن والحديث والشعر وغيرها.

---

[1]- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م، ص16.

[2]- حافظ اسماعيلي علوي ومحمد وأسيداه، اللسانيات والحجاج الحجاج المغالط، نحو مقاربة لسانية وظيفية ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3، ص270.

[3]- محمد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، تح: محمد عبد الرحمان مرعشلي، دارعلي بن النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص145.

ومنه نجد أن مفهوم الحجاج يتجلى في: تقديم الحجج التي تؤدي إلى استمالة عقل السامع وإقناعه، وتلك هي: غاية الحجاج التي تبرز في أشكال خطابية متعددة أهمها: الخطابة التي تعتمد الحجج النصية؛ لأجل تحقيق الإقناع.

ثالثا-أنواع الحجاج:

اختلفت وجهات نظر الباحثين في تحديد أنواع الحجاج وتعدّدت آراؤهم في ذلك، ومن بين هذه الآراء نذكر ما يلي:

1-الحجاج التوجيهي:

هذا النوع من الحجاج يهتم فقط بالمخاطب وانشغاله بإيصال رسالته إلى المخاطب دون الاهتمام بردة فعله ورأيه. ونقصد به إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجه الذي يختص به المستدل، علما أن التوجيه هو هنا، فعل إيصال المستدِل لحجته إلى غيره، فقد ينشغل المستدل بأقواله من حيث إلقائها، ولا ينشغل بنفس المقدار بتلقي المخاطب لها، ورد فعله عليها[1].

2-الحجاج التقويمي:

يقوم على مراعاة المرسل في خطابه الحجاجي لشيئين: هما الهدف المراد تحقيقه وهو الإقناع، والحجج التي يمكن أن يعارضه بها المرسل إليه، والتي يضعها في الحسبان أثناء بناء

[1]- ينظر :طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص226.

خطابه، ويمحصها عند استحضار حججه، فيفنّدها ويعارضها بالحجج التي يتوقعها من المرسل إليه، فلا يتمسك بها إلا إذا أدرك أنها تؤول بخطابه إلى القبول والتسليم[1].

وهناك تقسيم آخر يقوم على النظر في العملية الحجاجية وعناصرها، ويقسم الحجاج إلى ثلاثة أقسام، وهو ما نجده عند طه عبد الرحمان الذي يضع ثلاثة نماذج للحجاج هي :

أ- النموذج الوصلي:

فإنّه يجرد الحجاج من الفعالية الخطابية بمحو آثار المتكلم والمستمع، وبإظهار المضمرات الخطابية مع الجمود على الخصائص الترتيبية والصورية للحجاج، مستندا في ذلك إلى نظرية الإعلام، فتكون نتيجة هذا التجريد تحويل الحجاج إلى بنية دالية مجرّدة.

ب- النموذج الإيصالي:

فإنّه يشتغل بدور المتكلم في الفعالية الخطابية، فيركز على القصدية من جهة ارتباطها باللغة، ومن جهة تكوّنها من طبقات قصدية متفاوتة، مستندا في ذلك إلى نظرية الأفعال اللغوية، فتكون نتيجة هذا الاشتغال الواقف عند المتكلّم جعل الحجاج بنية دلالية موجهة. ويكون الحجاج هنا مركزا على دور المتكلّم في العملية الحجاجية ، ويهتم بمقاصده وما يوفره من طرق تمكنه من إقناع المتلقي .[2]

[1]- ينظر:عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، ص470.

[2]- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص271.

ج- النموذج الاتصالي:

يجمع النوعين السابقين، فهو يشتغل بدور المتكلم والمستمع معا في الفعالية الخطابية، فيركز على علاقة التفاعل الخطابي، مبرزا أهمية التزاوج القصدي والوظيفي والسياقي ودور الممارسة الحية التي تتبني على الأخذ بالمعاني المجازية والقيم الأخلاقية، مستندا في ذلك إلى نظرية الحوار مع تطويرها، فتكون ثمرة هذا الاشتغال المزدوج بالمتكلم والمستمع إحياء الحجاج وجعله بنية تداولية يجتمع فيها التوجيه المقترن باللامقترن بالأخلاق[1].

وهناك من يضيف إلى هذه الأنواع الحجاج الفلسفي والحجاج البلاغي:

3-الحجاج البلاغي:

وهو الذي يتخذ من البلاغة مجالاً له، ويتّخذها آلية من الآليات الحجاجية، وذلك لاعتمادها الاستمالة والتأثير عن طريق الحجاج بالصور البيانية والأساليب الجمالية ؛ أي إقناع المتلقي عن طريق إشباع فكره ومشاعره معا، حتى يتقبل القضية أو الفعل موضوع الخطاب[2].

فالبلاغة في هذا النوع هي المجال الذي يستقي منه الحجاج، آلياته من أجل إقناع المتلقي والتأثير فيه، من خلال توظيف الأساليب البلاغية والصور البيانية.

---

[1]- ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص272.

[2]-ينظر:هاجر مدقن، آليات تشكل الخطاب الحجاجي بين نظرية البيان ونظرية البرهان مجلة الأثر، الجزائر، العدد 05، 2005م، ص191.

4-الحجاج الفلسفي:

الذي يتَّخذ من الفلسفة بعدًا من أبعاده وآلية من آلياته، فتقاس نجاعته بمعايير خارجية كالقوة والضعف والكفاءة أو عدمها، والنجاح أو الفشل في الإقناع، ويكون هدفه التأثير والتقبل.

رابعا- تقنيات الحجاج وآلياته:

1- تقنيات الوصل (procédés de liaison):

وهي الطرائق التي تقرب بين العناصر المتباعدة بدءًا وفي الأصل، وتتيح إقامة ضرب من التضامن بينها لغاية هيكلتها، أو لغاية تقويم أحد هذه العناصر بواسطة الأخر تقويما ايجابيا أو سلبيا[1]ومن هذه التقنيات:

أ- طريقة المحاجة شبه منطقية:

تستمد هذه الحجج قوتها الإقناعية من مشابهتها للطرائق الشكلية والمنطقية والرياضية في البرهنة وتعتمد هذه الحجج البنى المنطقية مثل: التناقض والتماثل التام أو الجزئي ومثل قانون التعدية، كما تعتمد أيضا العلاقات الرياضية مثل علاقة الجزء بالكل وعلاقة الأصغر بالأكبر وعلاقة التواتر وغيرها[2].

[1]- ينظر:عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص41.

[2]- ينظر: نفسه، ص42.

ب- الحجج شبه المنطقية المعتمدة على العلاقات الرياضية:

تعتمد هذه الحجج على قواعد رياضية التي تؤسس طاقتها الحجاجية بهدف الاقناع منها:

- **إدماج الجزء في الكل:** يكون الحجاج في هذه الحالة قائما على النموذج التالي ما ينطبق على الكل ينطبق على الجزء مثال: ما أسكر كثيره فقليله حرام.

- **تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له:** تصور الكل على أنه مجمل أجزائه تبنى عليه طائفة من الحجج، يمكن تسميتها حجج التقسيم أو التوزيع ، كقولنا: الكلام إسم وفعل وحرف[1].

ج- الحجج المؤسسة على بنية الواقع:

تقتضي هذه الحجج ترابطا بين عناصر الواقع، الذي ترتكز إليه من أجل الحجاج. فاستخدم هذه الحجة يعني أن التوضيح بصورة جلية للترابط، بين القضية التي يتم الدفاع عنها، وعنصرا مقبولا سلفا لدى المتلقي، هذا الرابط يجب أن يكون معطى مسبقا ولا يتم خلقه أو إيجاده عند الحاجة، مثلما هو الحال في المماثلة[2].

[1]- ينظر:عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص 46.

[2]- ينظر: فيليب بروتون، جيل جوثييه، تاريخ نظريات الحجاج، تر: محمد صالح ناجي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز المملكة العربية السعودية، ط1، 2011م، ص49.

د- الحجج المؤسسة لبنية الواقع:

تهدف هذه الحجج إلى الربط بين الأحداث المعاشة والمتتابعة، فهي تجمع بين وقائع مترابطة زمنيا أو مكانيا أو رمزيا وتربطها صلة قوية بالواقع ولكنها لا تتأسس عليه، ولا تتبني على بنيته. وإنما هي التي تؤسس هذا الواقع وتبنيه، ويمكن هذا الواقع وتبنيه ويمكن التمثيل للترابط فيما يلي:

- في هذا الحي ذبابا كثيرا إذن هناك قمامات قريبة (تلازم مكاني).

- هذا الشخص يعاني من سرطان الرئة إذن كان يدخن (تلازم زماني).

- هؤلاء المتظاهرون يحرقون العلم الاسرائيلي إذن هم رافضون للكيان الصهيوني (تلازم رمزي)[1].

2- تقنيات الفصل(Dissociation): تتجلى طرائق الفصل في الأقوال والخطابات بما يعبر عن حضور أزواج من قبيل:

- بعض الجمل الاعتراضية كقولنا: إن هذا البطل إن صح بعض أنه بطل.

بعض الأفعال مثلا: يزعم يتوهم في قولنا مثلا: يزعم أن يتوهم أنه بطل، هذه التعابير كلها وغيرها كثير. تستمد مظهرها الحجاجي من فصلها داخل المفهوم الواحد منقسما إلى حدين (حد/ وحد) ، كأن يقال: إن ملكا يفعل هذه الأفاعيل، ليس ملكا[2].

[1]- ينظر، بوصلاح فايزة، الاقتناع في قصة إبراهيم عليه السلام، مقاربة تداولية، رسالة ماجستير، جامعة وهران، (2009/2010)، ص 27.

[2]- نفسه، ص(61-63).

ومن التقنيات الانفصالية نجد:

أ- **الآليات البلاغية:** ومن بين الأدوات والآليات اللغوية والبلاغية التي قد تؤدي الوظيفة الحجاجية نذكرها:

- **تقسيم الكل إلى أجزائه" التفريع:** قد يذكر المرسل حجته كلية في أول الأمر، ثم يعود لتفنيدها وتعداد أجزائها؛ إذا كانت ذات أجزاء. وذلك ليحافظ على قوتها الحجاجية، فكل جزء منها بمثابة دليل على دعواه.

-**الاستعارة:** تعرف الاستعارة الحجاجية بكونها تلك الاستعارة التي تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي[1]، لذلك يوظف المرسل الاستعارة لثقته أنها أبلغ من الحقيقة حجاجيا وهذا ما يود المرسل تحقيقه.

-**التمثيل:** وهو عقد الصلة بين صورتين ليتمكن المرسل من الاحتجاج وبيان حجته.

-**البديع:** وله دور حجاجي لا على سبيل زخرفة الخطاب؛ ولكن بهدف الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد. حتى لو تخيل الناس غير ذلك، فأساليب البيان مثلا. كالمقابلة والجناس والطباق وغيرها، ليست اصطناعا للتحسين والبديع؛ وإنما هي أصلا أساليب للإبلاغ والتبليغ.

[1]-عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، ص495.

ب-الآليات الشبه المنطقية: وهي من التقنيات الحجاجية التي قدمها عبد الهادي بن ظافر الشهري، في كتابه "استراتيجيات الخطاب" ضمن الآليات التي تجسدها السلم الحجاج بأدواته وآلياته اللغوية، ويندرج ضمنه كثير منها مثل: الروابط الحجاجية (لكن، حتى، عن، ليس، فحسب ، أدوات التوكيد)، وكذا درجات التوكيد الإحصاءات، وبعض الآليات، منها الصيغ الصرفية، مثل: التعدية بأفعال التفضيل والقياس وصيغ المبالغة[1].

خامسا-الحجاج واللغة:

تكتسب اللغة في الخطاب الحجاجي حيوية كبيرة؛ حيث تقوم بدور مهم وفاعل في التأثير والاستمالة، فالمفردات والتراكيب التي يوظفها المتكلم لوصف حادثة ما، تعكس حقيقة موقفه تجاه هذا الحدث؛ من خلال صور تشبيهية معينة، تؤثر في موقف المتلقي ، فالعمليات الفلسطينية مثلا، عندما تتحدث عنها الصحافة الإسرائيلية تنعتها بالتخريبية؛ لأن الخطاب فيها موجه إلى جمهور الإسرائيليين. بينما يصفها الفلسطينيون ومن يناصر قضيتهم بالاستشهادية والفدائية دفاعا الوطن؛ في هذه الحالة تعمل اللغة على إثارة المشاعر والانفعالات سواء أكانت إيحائية أم سلبية، « فنحن نتكلم عامة بقصد التأثير»[2]، وهذا التأثير ناتج في الحقيقة عن دورها التواصلي، يقول بنفنست ":(Benvenist) اللغة تعرض إمكانيات تجعلها قادرة على أن تكون أداة (تواصل)، إنها

[1]- عبد الهادي بن ظافر الشهري استراتيجيات الخطاب، ص477.

[2]- أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، (مقال) ضمن كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق حمو النقاري، ص55.

تحتمل بث ما نعهد به إليها: أمرا، سؤالا، إعلانا، وهي تثير كل مرة في المخاطب سلوكا مناسبا"[1]. أي أنّ اللغة تسند إليها الوظيفة الحجاجية انطلاقا من مكوناتها التركيبية ومن مخزونها البياني المرتبط بالإقناع. ولهذا لا يكفي في الحجاج الإلمام بالحجج وحدها؛ بل يجب وضعها ضمن إطار لغوي في خطة حجاجية مناسبة، تضمن الاستمالة والتأثير. يقول محمد سالم:« فلا يركز في الحجاج إلقاء وتحليلا وكتابة إلا على الأمور الداخلة في بنيته الموصلة إلى الإقناع، فالأمثلة الجاهزة والجمـل الوعظية أو الإرشادية وغيرها لا يتم التطرق إليها إلا إذا كانت داخلة في بنية قوليه خطابية، وتؤدي هدفا في خطة حجاجية معينة»[2]. ولعلّ منبع هذا الاهتمام باللغة يرجع إلى ما توفره من إمكانات حجاجية، ومن ذلك التمثيل الذي يحمل إقناعا؛ لأنّ المتكلم يأتي بصور جديدة قائمة على المشابهة. تهدف إلى استمالة عقل وقلب المتلقي، « ولهذا تقوم كثير من المحاججات على تقنية التمثيل؛ إذ يكون موضوع بحثها كيف أن فكرة ما تشبه أخرى»[3].

وقد اهتم بيرلمان بالتمثيل الذي نبه فيه على حجاجيته وفعاليته الإقناعية، موضحا أن المكونات الأسلوبية الموجودة في النص، ليست سوى مستويات للحجاج[4]. وإجمالا نقول، تؤدي

[1]– إميل بنفنيست، عن ذاتية في اللغة، (مقال) ضمن كتاب تلوين الخطاب فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية و المعرفية والتداولية والحجاج تر: صابر الحباشة، ص105.

[2]– محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج، بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ص65.

[3] –جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص119.

[4]– ينظر: محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ص61.

اللغة وظيفة حجاجية إلى جانب وظائف أخرى؛ لأنها تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، كما تتخذ أشكالا وأنماطا مختلفة في التعبير من ذلك :الخطابة.

سادسا–الطباق تعريفه أنواعه وأهميته:

تحظى دراسة علم البديع بمحسناته اللفظية والمعنوية، في علم البلاغة بأهمية كبيرة. فإذا كان علما البيان والمعاني، يمثلان الهيكل الأساسي لعلم البلاغة، فإن علم البديع وسيلة من وسائل التزيين الذي يضفي على ذاك الهيكل الجمال والحسن بحسب استخدام المتكلم له، أي إذا ما أصاب المقدار، ووقع الكلام موقعه، وجاء موفقا غير متكلف، خاليًا من الحشو والإطناب، أعطى الكلام الرونق والجمال، لأنه يكون في خدمة المعنى وليس عبئا على الكلام، بخلاف ما إذا كان متكلفا مبالغا فيه، ففي هذه الحالة يكون عبئا ثقيلا على الكلام، فيذهب بحسنه وبريقه، وهذا يوضح أن البديع لابد أن يأتي في مكانه ومحله، دون تكلف حتى يكون مستحسنا والعكس صحيح، أي إذا جاء متكلفا زائدا عن الحد؛ فانه يفسد العمل الفني برمته، فالجمال يكون في البساطة وليس في الحشو الزائد عن حده.

كما أن البديع يضطلع بدور حجاجي لا على زخرفة الخطاب، بل إن هذه الآلية الحجاجية هدفها الأول هو الإفهام، وأن أساليب البديع المختلفة مثل: المقابلة، والجناس، والطباق، وغيرها ليست اصطناعا للتحسين فحسب وإنما هي أصلا أساليب للإبلاغ والتبليغ.

إن دور البديع لا يقتصر على الوظيفية الشكلية ولا على زخرفة الخطاب ولكن يهدف إلى الإقناع والبلوغ بالأثر مبلغه الأبعد، والبلاغة العربية مليئة بهذه الصور والإمكانيات، التي تثبت أن الحجاج من وظائفها الرئيسية وليس وجودها على سبيل الصنعة اللفظية فحسب.

ومن المحسنات البديعية البلاغية نجد "الطباق" الذي يقوم بوظيفة حجاجية بلاغية تتمثل في توضيح المعنى وتجليته، حيث يدعم المعنى بقوة الوضوح حين يجمع بين معنيين متضادين متقابلين في الملفوظات، وذلك لأجل التأثير في المخاطب واستمالته وإقناعه.

أولا–تعريف الطباق:

1–التعريف اللغوي:

أطلقت على الطباق أسماء عديدة منها التطبيق، والمطابقة، والتضاد والتكافؤ، والأشهر هو الطباق والمطابقة.

ورد في لسان العرب لابن منظور: « تطابق الشيئان تساويا، والمطابقة الموافقة، والتطابق الاتفاق، وطابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو واحد وألزقتهما... وطابق بين قميصين: لبس أحدهما على الآخر. والسموات الطباق: سميت بذلك لمطابقة بعضها بعضا، أي بعضها فوق بعض، وتعني المطابقة أيضا، أن يضع الفرس رجله في موضع يده، وفي كتاب علي رضوان الله

عليه إلى عمرو بن العاص، كما وافق شن طبقة. قال: هذا مثل للعرب يضرب لكل اثنين أو أمرين جمعتهما حالة واحدة، اتصف بها كل منهما»[1].

وذكر الأصمعي المطابقة في الشعر فقال: أصلها وضع الرجل في موضع اليد في مشي ذوات الأربع وأنشد لنابغة بني جعدة:

وخيل يطابقن بالذراعين طباق الكلاب يطأن الهراسا[2]

وفي المصباح: « الطبق من أمتعة البيت والجمع أطباق مثل سبب أسباب ومثل جبل جبال، وأصل الطبق الشيء على مقدار الشيء مطبقاً له من جوانبه كالغطاء له ومنه يقال أطبقوا على الأمر إذا اجتمعوا عليه متوافقين غير متخالفين ومطر طبق دائم متواتر، كقول امرئ القيس[3] :

دَيمَةٌ هَطْلاءُ فِيها وَطَفٌ طَبَقَ الأَرضَ تُجَرى وَتُدِر

والوطف السحاب المسترخي الجوانب لكثرة مائه، وقوله: طبق الأرض أن تعم الأرض، وتجرى: تتوخى وتقصد وتدرّ: تكثر وتغزر. والسموات طباق أي كل سماء كالطبق للأخرى»[4].

---

[1]– ابن منظور، لسان العرب، مج10، مادة (طبق).

[2]– ابن رشيق لقيرواني أبو الحسن، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح: محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مصر، ج2، ط1، 1955م، ص7.

[3]– ديوان امرؤ القيس، ص140.

[4]– أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، 1987م، ط1، ص140.

2- التعريف الاصطلاحي:

2-1-الطباق في اصطلاح البلاغيين:

أطلق البلاغيون على الطباق مسميات عدة، منها ما جاء في معجم المصطلحات البلاغية لأحمد مطلوب إذ يقول: « أن الطباق هو التضاد والتطبيق والتكافؤ والمطابقة والمقاسمة»[1].

وعرفه السكاكي (ت 626هـ) بقوله « وهي أن تجمع بين متضادين كقوله»[2] :

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمْرُهُ الأمرُ

وقوله علت كلمته:﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. [آل عمران: 26]

ولم يتوسع "السكاكي" في بحث هذا اللون البديعي كما توسع فيه ابن الأثير، الذي عبر عن المعنى ذاته في حده للطباق، بقوله: « اعلم أن جماعة من أرباب الصناعة قد أجمعوا على أن المطابقة في الكلام هي الجمع بين الشيء وضدّه، كالسواد والبياض والليل والنهار، وخالفهم في

[1]- مطلوب أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، العراق، ج3، 1987م، ص166.

2- السكاكي أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2011م، ص533.

ذلك أبو الفرج قدامة ابن جعفر الكاتب (ت 337هـ) فقال: « المطابقة إيراد لفظتين متساويتين في البناء والصيغة مختلفتين في المعنى. وهذا الذي ذكره قدامة هو(التجنيس) بعينه»[1].

2-2-الطباق بين اللغة والاصطلاح:

إذا قارنا بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لمصطلح (الطباق) فإننا نجد أن معاجم اللغة تتفق على أن المعنى اللغوي للطباق لا يخرج عن الموافقة والمساواة في المقدار، وهو عكس المعنى الاصطلاحي الذي يعنى التضاد بين معنيين، ولذلك عدة تفسيرات منها الرأي الذي ذهب إليه ابن القيم (ت 751هـ)، حيث يرى أن البلاغيين قد سموا هذا الضرب من الكلام مطابقة تسمية مرتجلة، لا اشتقاق لها ولا مناسبة ولكنه لا يستبعد أيضا أن يكونوا قد علموا لذلك مناسبة لطيفة لم يطلع عليها غيرهم»[2].

ومساواة الشيء للشيء في المقدار قد يكون مخالفا له في النوع، كجعل الطبق فوق الإناء يكون مساويا له في المقدار ومخالفا له في النوع، وعلى هذا يفسر قوله تعالى: ﴿ الذي خلق سبع سماوات طباقا﴾ الملك:3، أي بعضها فوق بعض بالتساوي، وإن كانت كل سماء تختلف عن غيرها.

[1]- ابن الأثير نصر الله ضياء الدين، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح: مصطفى جواد وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، العراق، (د ط)، 1956م ، ص211.

[2]- ابن القيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، (د ط)، (د ت)، ص146.

أما ابن رشيق القيرواني (ت 456هـ) فقد حاول التوفيق بين المعنى اللغوي وهي (الموافقة)، والدلالة الاصطلاحية وهي (التضاد) لمصطلح الطباق، كما حاول التوفيق بين آراء الدارسين حين عرفه بأنه: « مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان»[1].

وقد عقب على هذا التعريف بقوله: « إنه أحسن قول سمعه لأنه أجمع للفائدة، وأنه يشتمل على أقوال الفريقين»[2].

وهذا المعنى اللغوي هو الذي جعل ابن الأثير (ت 637هـ) يدمج الطباق والمقابلة تحت عنوان واحد هو(المقابلة)، لأن التقابل لا يكون بين المتضادات فقط، بل قد يكون بين المعنى ومثيله، أو بين المعنى وما ليس بضده. وخالف السكاكي الذي فصل بين الطباق والمقابلة حيث ذهب إلى أن الفرق بينهما كمي لا نوعي، يقول: « الأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع (المقابلة)، لأنه لا يخلو الحال في ذلك من ثلاثة أقسام: إما أن يقابل الشيء بضده أو بغيره أو بمثله وليس لنا قسم رابع»[3] وهو ما دعا إليه العلوي الذي اقتفى آثار ابن الأثير (ت 637هـ) فلم يفصل بين الطباق والمقابلة في كتابه الطراز، وتناولهما تحت عنوان واحد هو "التطبيق"، ورأى أنه من الأجود أن يسمى هذا النوع بالمقابلة، لأن الضدين يتقابلان كالسواد والبياض، والحركة

[1]– ابن رشيق القيرواني أبو الحسن، العمدة في صناعة الشعر، ج2، ص7.

[2]–نفسه، الصفحة نفسها.

[3]– ابن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ص212.

والسكون وغير ذلك من الأضداد، من غير حاجة إلى تلقيبه بالطباق والمطابقة لأنهما يُشعران بالتماثل[1].

إن ما دعا إليه ابن الأثير(ت 637هـ) بدمج الطباق والمقابلة تحت عنوان واحد، هو (المقابلة)؛ لأن التقابل لا يكون بين المتضادات فقط. هذا التجديد دعا إليه بعض النقاد المحدثين من أمثال، الدكتور رجاء عيد، في كتابه فلسفة البلاغة، حيث سمى هذا النوع بالطباق، يقول: « ولا يجدي إسراف البلاغيين في تفريعاتهم له وليس هناك معنى للحديث عن الطباق والمقابلة فما هذا إلا ذاك»[2].

3-أنواع الطباق:

من أشهر أنواع الطباق طباق الإيجاب وطباق السلب؛ **فطباق الإيجاب:** وهو الجمع بين الشيء وضده، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ولا الظُّلُمَاتُ ولا النُّورُ وَلا الظَّل ولا الحرور وما يَسْتَوِي الأحياء ولا الأمْواتُ﴾ [فاطر: 19-22].

وأما طباق السلب، فهو الجمع بين فعلي مصدر واحد، مثبت ومنفي، أو أمر ونهي،[3] كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: 44] .

---

[1]- العلوي يحي بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 2002م، ص197.

[2]- عيد رجاء، فلسفة البلاغة بين التقنية، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، (د ط)، (د ت)، ص220.

[3]- ابن رشيق القيرواني أبو الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2 ، ص257.

ومن الأنواع التي ذكرها الخطيب القزويني (ت 739هـ) والتي نجدها من أجمل صور التضاد وهي:

- **طباق بلفظتين من نوع واحد:** اسمين أو فعلين أو حرفين فما كان بين اسمين؛ كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ولا الظُّلُمَاتُ ولا النُّورُ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ ولا الأَمْواتُ﴾ [فاطر: 19-22].

- **وما كان بين فعلين** كقوله تعالى: ﴿ و أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وأحيا ﴾ [النجم: 43، 44] ، فقد وقع الطباق بين (أَضْحَكَ وَأَبكَى)، وبين (أمات وأَحْيَا).

- وما كان بين حرفين كقوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة : 286]، الطباق بين (لها) و(عليها).

- **ضرب يأتي بألفاظ الحقيقة،** وضرب يأتي بألفاظ المجاز مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ [فاطر: 19]. (الأعمى والبصيرُ) وكذا (الظُّلمات ولا النُّورُ) ألفاظ مجازية، بينما (الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ) ألفاظ دلالاتها حقيقية. والضرب الذي يأتي بألفاظ مجازية سماه علماء البلاغة (التكافؤ)[1].

[1]- ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح: حفني محمد شرف، (د ط)، (د ت) ج2، ص99.

– **طباق بلفظين من نوعين مختلفين** كقوله تعالى: ﴿ وَمَن كان ميتا فأحييناه﴾ [الأنعام: 122] أي ضالا فهديناه، الطباق بين(ميتا) وهي اسم كان و (أحييناه) وهي فعل ماضي.

–وقسم الطباق أيضا إلى طباق ظاهر وأخر خفي:

– **فالظاهر** ما لا يحتاج إلى تأويل، وما يظهر فيه التضاد صريحا .

– **والخفي** ما يحتاج إلى تدبّر وروية لاستخلاصه ويغلب أن يكون اللفظ الثاني مستلزما لما يضاد الأول ، كقوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللهِ أَنصَارًا ﴾ [نوح: 25]. لأن إدخال النار يستلزم الإحراق المضاد للإغراق، أو لأن الغرق من صفات الماء ، فكأنه جمع بين الماء والنار. قال ابن منقذ هي أخفى مطابقة في القرآن الكريم[1].

ويسمى هذا النوع كذلك (إيهام التضاد)، ومنها قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: 29]. فالمطابقة هنا بين (أشداء) و (رحماء). والرحمة ليست ضدا لـ (أشداء)، ولكن الرحمة تستلزم (اللين) الذي يتقابل ويتضاد مع (الشدة)، لأن من رحم لان قلبه ورق. فالتضاد ليس واضحا، بل فيه خفاء. ومنه وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ، لأن معنى القصاص القتل، فصار القتل سبب الحياة. قال ابن المعتز؛ وهذا من أملح الطباق وأخفاه[2].

[1]– الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم مكتبة دار التراث، مصر، (د ط)، (د ت)، ج3، ص457.

[2]–نفسه، ص457.

4-أهمية الطباق:

تبرز أهمية الطباق في عدة أمور نذكر منها ما يأتي:

- يُعطي وجود الطباق في الجملة معناها الكامل، ويوضح ما المقصود بها.

- يساعد الطباق على ربط الأشياء بعضها مع بعض، مثلاً: عند نطق كلمة الخير ، فإنَّه تخطر على بالك كلمة الشرّ.

- يُضيف الطباق على النَّصّ الجمال الذي ينقصه لان صدى تأثير الحروف يدوم طويلاً على فكر الإنسان وحياته.

ولا أدل على ذلك من قول دوقلة المنبجي:

فالوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مبيض والشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيلِ مُسوَّد

ضدان لمَّا اسْتجْمعًا حَسُنَا والضِدُّ يُظْهرُ حُسْنَهُ الضِدُّ

5-المقابلة:

تحمل المقابلة في المعاجم العربية معنى المواجهة والتقابل قال ابن منظور (ت 711هـ): «المقابلة المواجهة، والتقابل مثله وهو قبالك وقُبالتك أي تجاهك؛ وقبالة الطريق ما استقبلك»[1].

[1]- ابن منظور، لسان العرب، ج11، مادة (قبل)

وهي كذلك عند أحمد بن فارس (ت 395هـ) ، في معجم مقاييس اللغة حيث يذكر أن مادة (قبل) « أصل يدل على مواجهة الشيء بالشيء»[1].

أما تعريف المقابلة في اصطلاح البلاغيين فإنهم يتفقون على أنها الجمع بين متضادين أو أكثر وقال عنها السكاكي:« هي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر، وبين ضديهما»[2].

وهي عند "الخطيب القزويني" « أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم بما يُقابل ذلك على الترتيب. والمُراد بالتَّوافق خِلافُ التقابل نحو: فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيبْكُوا كثيرا»[3].

كما ويتفق ابن رشيق مع ابن أبي الأصبع في تعريفه للمقابلة، يقول ابن أبي الأصبع: «عبارة عن توخّي المتكلم ترتيب الكلام على ينبغي، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه على الترتيب، بحيث يقابل الأول بالأول، والثاني بالثاني، لا يخرم من ذلك في المخالف والموافق... وقد تكون المقابلة بغير الأضداد»[4].

ومنه نستنتج أن القيمة الجمالية في البديع تَكْمُنُ في المعنى والأسلوب معا، فكلاهما وسيلة من وسائل التواصل والإبلاغ ، والمتكلم عند إلقائه لخطاب ما فيكون قد حسنه وجمله وراعى

---

[1]– ابن فارس، مقاييس اللغة، ج5، مادة(قبل).

[2]– السكاكي أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، ص533.

[3]– القزويني جلال الدين الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة، تح: عبد الرحمان البرقوقي، المطبعة الرحمانية، مصر، ط2، ص352.

[4]– ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ص179.

فيه أحوال المخاطبين وتوخى فيه وضوح الدّلالة، وذلك لاستهداف عقولهم وأيضا مشاعرهم. وهنا تكمن القيمة الحجاجية لهذا العلم.

الفصل التطبيقي

الطباق من التحسين إلى التداول

أولا:تقديم المدونة (الخطب)

ثانيا:الوظيفة البنائية للطباق في الخطابة

ثالثا:حجاجية الطباق بين الإقناع والمقصد

كانت نظرة البلاغيين القدامى لعلم البديع نمطية، مركزة على الزخرفة اللفظية وتزيين النصوص دون الاهتمام بالجانب الوظيفي. ومع ظهور البلاغة الجديدة، جاءت برؤية حداثية تربط علم البلاغة بمختلف العلوم والمعارف الحديثة، مما جعلها مجالاً معرفياً واسعاً، يراعي الجوانب الوظيفية ويهتم بعملية التواصل والتخاطب. هذا التطور تجلى بوضوح في موضوعات علم البديع؛ إذ أثبتت الدراسات الحديثة، أن للبديع قيمة صوتية ودلالية بارزة وبعدا تداوليا وحجاجياً، إضافةً إلى دوره في تثبيت المعنى وتوضيح المقاصد، فضلا عن أثره في تدبيج الكلام وإضفاء الطابع الجمالي عليه. ويروم هذا الفصل تتبع المحسنات البديعية المعنوية (الطباق/المقابلة) واتجاهاتها الوظيفية في النص لمعرفة مدى مساهمتها في العملية الإقناعية في ضوء نظرية الحجاج التي هي عماد البلاغة الجديدة. ومنه يهدف إلى الكشف عن الوظيفة الحجاجية للتطابق وكيف تتحول المحسنات المعنوية إلى آليات حجاجية.

وقد اتخذنا من خطب الجمعة مدونة للعمل، كونه خطابا يتكئ على جملة من الآليات البلاغية لتحقيق الحجاج؛ ولكونه كذلك خطابا متجددا على مدى الأسبوع، وله اتصال وثيق بواقع الأمة وأحوالها، وقد وقفنا عند محطات كبرى منه، لا تكاد تخطئها العين ولا تنسها ذاكرة التاريخ، وهو ما أعطاها قيمة شكلت مسار تغيير في حاضر الأمة ومستقبلها.

أولا–تقديم المدونة (الخطب) :

أ– أول خطبة جمعة للنبي صلى الله علية وسلم في المدينة المنورة:

مثلت الهجرة النبوية الشريفة منعطفا جديدا وتحولا كبيرا في تاريخ الدعوة الإسلامية، حيث انتقلت بالمسلمين من طور الجماعة، إلى طور بناء الدولة المسلمة، وقد سبق المسلمون نبيهم بالهجرة إلى المدينة المنورة وطنهم الجديد، وكانوا في أشد الشوق ليلتحق بهم في دار هجرتم، وما زالوا في ترقب دائم للوقت الذي تحط فيه رحاله عندهم. فما إن وصل إليها حتى أتاه القريب والبعيد، المسلم وغيره ينظرون إلى وجه، ويتلقفون أول كلماته، وقد كان أول نزوله بقُبَاء، على بني سالم بن عوفٍ، يوم الاثنين الثاني عشر ربيع الأول، حين اشتد الضُّحى، فأقام بقباء إلى يوم الخميس السادس عشر ربيع الأول وأسس مسجدهم، ثم خرج يوم الجمعة السابع عشر ربيع الأول إلى المدينة فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوفٍ في بطن وادٍ لهم، قد اتخذ القوم في ذلك الموضع مسجدا، فجمع بهم وخطب، وهي أول خطبة جمعة جمعها بالمدينة[1].

أما البيئة التي أبدع فيها النّص؛ فهي في دار الإيمان وفي جمهورٌ من المسلمين، وفي أول جمعة صلاها رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسلام بنفسه، في المدينة المنورة بعد الهجرة، وأول ما يلفت الانتباه ها هنا، هو أن هذه الخطبة قيلت في أجواء من الحرية وفي حيّز جغرافي بعيد عن أذى

[1]– مجدي محمد الشهاوي، خطب النبي صلى الله عليه وسلم، المكتبة الوقفية، مصر، (د ط)، (د ت)، ص7.

قريش وتضييقها، مما يعني أن القوة المعادية المضادة لم يعد لها تأثير للحد من طول الفكرة ومغزاها؛ فالنَّص أبدع في أجواء من الحرية، والجمهور متفاعل مع النص وصاحبه.

ب-أول خطبة جمعة بعد تحرير القدس، لمحي الدين ابن الزكي:

هي الخطبة التي ألقاها محيي الدين ابن الزكي في المسجد الأقصى بعد تحريره في السابع والعشرين من رجب سنة (583 هـ)[1]، وقد ألقيت الخطبة في أول جمعة بعد الفتح، أي في الرابع من شعبان سنة (583 هـ)[2] ، وكان يوم التحرير يوم جمعة، وساعة دخول القدس كانت ساحة حلول وقت الصلاة، إلا أن المسلمين لم يستطيعوا إقامة الخطبة في المسجد الأقصى في ذلك اليوم؛ وذلك لأن المسجد الأقصى لم يكن معدا للصلاة، ولانشغال المسلمين بالفتح والسيطرة على المدينة فتم الاشتغال بالأولى[3].

وكان ابن زكي قد تنبأ بفتح القدس في رجب، وذلك عند فتح السلطان صلاح الدين الأيوبي حلب سنة 579 هـ ، ولقد استند على نبوءة لابن برجان في تفسيره، فتقدم ابن زكي، وعمل قصيدة مدح فيها السلطان بمناسبة فتحه لحلب، وذكر فيها النبوءة قائلا:

---

[1]- المقريزي تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1997م، ص210.

[2]- نفسه، ص نفسها.

[3]- أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، ط1، ص221.

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر مبشِّر بفتوح القدس في رَجَب[1]

وشرف السلطان صلاح الدين، القاضي ابن زكي باختياره ليكون أول خطيب يخطب بالمسجد الأقصى بعد تحريره.

ج- أول خطبة بعد الاستقلال بمسجد كتشاوة، للبشير الإبراهيمي:

هي خطبة ألقاها الإمام محمد البشير الإبراهيمي، في الجمعة الأولى بعد الاستقلال، بمسجد "كتشاوة"-باب الواد- بالجزائر العاصمة. وذلك بتاريخ 5 جمادى الثانية 1382هـ الموافق للثاني من نوفمبر 1962م، بحضور أركان الدولة ووفود غفيرة من مختلف الدول الإسلامية[2]. وجاء موضوع الخطبة على خلفية استرجاع وإعادة مسجد كتشاوة والصلاة فيه، بعدما حول إلى كنيسة ومعبد للنصارى، في عهد الاستعمار الغاشم، ويمثل استرجاع هذا الصرح، شاهداً على تضحيات الجزائريّين وتشبُّثهم بهويتهم.

إنها أول خطبة جمعة، يلقيها الشيخ بعد الاستقلال، وهي خطبة تشكل في العمق احتفالية مزدوجة: تتمثل في قداسة يوم الجمعة عند المسلمين، والتحرر من الغزاة الفرنسيين باعتبار التحرر ثمرة من ثمرات الجهاد. ومن المعلوم أن الجهاد فعل مقدس عند المسلمين، خاصة وأنهم ذاقوا مرارة الاستعمار وأشربهم من قمعه حتى الثمالة... فما استكانوا ولا وهنوا ولا تراجعوا عن تأكيد

[1]- أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ص(103-111).

[2]- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، ط1، 1997م ، ج5، ص(305-308).

شرعيتهم في ملكية الأرض وصون العرض، ولعل هذا ما قدح في أذهاننا اختيار هذه الخطبة ربطا لبطولات هذا الشعب، بشعب فلسطين، الذي لا يزال في جهاد دائم وكفاح مستمر.

ثانيا- الوظيفة البنائية للطباق في الخطابة:

البديع هو أحد فروع البلاغة العربية ، ولطالما اعتبر مجرد تزيين للنص دون إضافة معنى جديد. ومع ذلك فقد تغيرت نظرة البلاغة الحديثة إلى البديع، حيث أصبح ينظر إليه على أنه وسيلة لتحقيق الإقناع والتأثير في المتلقي. فالبديع يعتمد على الإيهام وشد انتباه المتلقي، مما يجعله وسيلة تأثيرية في النص، كما أنه يشرك المتلقي في إنتاج النص، ويسهل عليه فهم مقاصد المتكلم، وهذا يتماشى مع فكرة؛ أن الإنسان يتكلم بهدف الإقناع والتأثير، مستخدمًا اللغة في بعدها الوظيفي، الذي يحمل طاقات حجاجية، تتجسد من خلال التواصل. وبالتالي فإن البديع لم يعد مجرد زخرفة زائدة يمكن الاستغناء عنها، بل أصبح وسيلة بلاغية هامة تسهم في إنتاج النص وتحقيق أهداف المتكلم، من إقناع وتأثير في المتلقي. وهذا يعني أنّ لهذا العلم أبعادا وظيفية غير الزخرف اللفظي، وهو ما أغفلته الدراسات البلاغية القديمة، وسعت البلاغة الجديدة إلى إبرازه.

ومع تطور الدراسات النّصية والحديثة ومباحث تحليل الخطاب، أدرك البلاغيون والمشتغلون في مجال اللسانيات النصية، أهمية البديع ومدى نجاحه في تحقيق الاتساق، والانسجام بين مكونات النص؛ وقد أشار بعضهم إلى وجود عدة ظواهر نصية في البلاغة العربية، من شأنها أن تُسهم في ربط مكونات النص، لذلك صارت إعادة النظر في قيمة البديع النصّية، أمرا ملحا

لتجاوز ذلك الحكم النمطي، الحاضر في أكثر الأحيان عند دراسة النصوص التراثية، حيث لا يُرى البديع إلا تكلّفا، أو لمسات تزينية على حواف المعنى في أحسن الأحوال... ومنه فإنّ المحسنات تُسهم في تماسك النص، من خلال العمل على ربط أجزاء النص بعضها بالبعض، كما لا يمكن إغفال الجانب الأهم في البديع، ألا وهو الإيقاع، وما يتركه من جرس موسيقي يستهوي المتلقي ويأسره ويشدّه إليه شداً، فإذا هو مقبل على النص بتأثير من بديعه، وهكذا يصبح المخاطب شريكا في إنتاج الدلالة.

ويقسم بعض الباحثين البديع إلى أنواع من أبرزها البديع التداولي وهو من أكثر الأنواع تأثيرا في المتلقي، فالكلام البليغ يتضمن بالضرورة الإيقاع التشابهي بوصفه أساس الفن، وهو الذي يرتكز على فعالية المتلقي، في إنتاج المعاني الإيحائية المتضمنة في شكل هذا البديع الذي في ورد في النصوص القرآنية الراقية والبليغة. ومن المعلوم أنّه لا يتحقق الإيقاع في النص النثري إلا من خلال أنواع البديع، من جناس وسجع ومقابلة، إذْ تُسهم جميعها في إثارة مشاعر المتلقي بتنوع الإيقاعات التي تتلذذ بها الآذان وتؤسر بها القلوب؛ وعليه فإنّ الهدف من استعمال المحسنات البديعية، ليس ظاهريًّا قائماً على الزخرفة اللفظية في ذاتها، وإنما يكمن سرّها في درجة التأثير على المتلقي واستمالته، وهو آلية من آليات إقناعه بجدوى الخطاب المطروح، أو القضية المتبناة في النص. وبالتالي يمكن القول إن آليات البديع تجمع بين الإمتاع والإقناع، وهي بذلك ذات بعد تداولي حجاجي.

لقد قسم البلاغيون البديع، باعتبار الوظيفة التي يؤديها في الكلام إلى قسمين: قسم يعنى بجانب الشكل والألفاظ وأصواتها وهو البديع اللفظي، وقسم يعنى بالمضمون ومعاني الألفاظ وهو البديع المعنوي. وسنتناول في دراستنا لهذا الفصل المحسنات المعنوية التي نقتصر فيها على الطباق والمقابلة، باعتبارهما أبرز المحسنات المعنوية.

يعد الطباق والمقابلة من أهم المحسنات البديعية المعنوية. وانطلاقا من أنّ الأشياء تُعْرَف بأضدادها، فإنّ الطباق هو الجمع بين المتضادين أي بين معنيين متقابلين في الجملة[1]. ومن أهم التسميات التي أطلقها عليه البلاغيون: المطابقة والتضاد. وأما المقابلة فهي طباق مركب إذ تشمل عدة ثنائيات متقابلة، وذلك بأن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معان متوافقة، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب، والمراد بالتوافق خلاف التقابل[2]، ويتداخل المعنى البلاغي للطباق والمقابلة ويقع لدى الباحثين بعض اللبس بينهما، فهناك من يرى أن المقابلة تدخل ضمن الطباق، لكونها طباقا متعددا في حين يرى آخرون أنّ المقابلة أعم من الطباق. ومهما يكن من توافق أو اختلاف في التمييز بين الطباق والمقابلة، فإنّ بلاغة التضاد والتقابل تظهر في تحريكهما للعقول، بالتغلغل إلى قلب السامع لتستميله، وتشده إلى التأمل والبحث في هذه التقابلات، ليقف عندها ويبحث في المعاني التي أضافتها للنص؛ وعليه فإنّ ورود معنى الكلمة وضدها في الخطاب ليس أمرا اعتباطيا، وإنّما

[1]– القزويني جلال الدين الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، ص255.

[2]–نفسه، ص259.

جيء به ليزيد معنى النص وضوحاً وتأكيداً، وهذا التباين والاختلاف، له دوره في توجيه الخطاب وفق دلالات بعينها.

فالمبدع بإمكاناته الخاصة قد يخلق تقابلات غير لغوية، في ارتباط بقدراته الإبداعية ورؤيته الخاصة للعالم وللأشياء، فيحقق تقابلات سياقية أو أسلوبية أو ثقافية. وقد علّل ابن الأثير إيثاره تسمية (الطباق) بـ (المقابلة) بقوله : « لأنّه لا يخلو الحال فيه من وجهين : إمّا أن يقابل الشيء بضدّه، أو يقابل بما ليس بضدّه»[1]، فهو يتضمّن أشكال التناقض والتضادّ والتعاكس والاختلاف، وهذه المسميات تختلف مسمياتها الدالة عليها من باحث إلى آخر، كما أنها تختلف بين القدماء والمحدثين. والمحدثون خصوصا اتجهوا فيها اتجاها آخر في دراساتهم الدلالية، وذلك بوضعهم مصطلحات حديثة يندرج تحتها ما سمّي التقابل بالتضادّ، والتناقض، والتخالف.

وقد وقع اختيارنا على هذه المدونة من الخطب–التي تم التعريف بها سابقا– لنُجْرِيَ عليها دراستنا التطبيقية وذلك بالوقوف عند بعض مواضع الطباق والمقابلة، وما لهما من أثر في بناء المعنى، ومن قيمة حجاجية في عملية التخاطب. ومن المتقابلات التي اعتمد عليها الخطباء في بناء معانيهم في هذه المدونة وقفنا عند ما يلي:

[1]– ينظر: ابن أبي الأصبع المصري، تحرير التحبير، ص179.

1-البناء بالمتضادات:

« ويكون بتضاد كلمتين في اللفظ والمعنى، شريطة أن تكونا كذلك قبل دخولهما في التركيب. وفيه تتقابل الألفاظ المتضادة التي لا يجوز اجتماعها في وقت واحد كالليل والنهار»[1].

مثال1: « الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفره وأعادى من يكفره»

هذا المثال من خطبة النبي صلى الله عليه وسلم: إذ ورد الطباق بين (وأؤمن به /ولا أكفره) فكلمة الإيمان ضد كلمة الكُفر، وهو طباق الإيجاب، حيث لم يختلف فيه الضدان إيجابا وسلبا، وقد وقع بين فعلين احدهما مثبت والآخر منفي. وقد استهل الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته بهذا الطباق لأجل توضيح المفارقة بين (الإيمان والكفر)، وتلك قضيته الأولى التي أرسل بها، وكي يمنح كلامه معنى وقوة إقناعية، فإنه أثبت القضية الأولى (الإيمان)، ونفي القضية الثانية (الكفر)، واتبعها بما يؤكد نفيها بقوله: « وأعادى من يكفره»، ليكون أكثر توضيحا لقصده؛ وعندما يتأمل المتلقي هذه الصورة المتضادة يدرك الفرق بينهما، وبذلك يحصر موقفه تجاه نتيجة معيّنة. وعادة ما تكون هي قصد المرسل، وهذا الطباق الذي جاء في النص له أثر واضح في المحاججة، ويتبيّن لنا غرض الرسول صلى الله عليه من الطباق الذي لم يُؤْتَ به لأجل الزخرفة، بل من أجل التأثير وتحقيق المتكلم لمقاصده، ومن ثمّ إقناع المتلقي بما تضمنه كلامه.

[1]- ابن فارس، المقاييس في اللغة، مادة(ضد).

مثال2: « من يطعِ الله ورسولُهُ فقد رشدَ، ومن يعصهما فقد غوِيَ وفرط»

أتى الخطيب في هذا المثال بمعنًى ثم أتبعه بما يقابله في الترتيب، والمقابلة من أهم وسائل البلاغة إقناعا في الخطب، وخاصة الخُطب الدينية ويفيد هذا التقابل بين الألفاظ الحجاج والإقناع من عدة أوجه بحيث أنه:

– يؤكد على أن طاعة الله ورسوله هي الطريق إلى الرشاد والهداية، بينما معصيتهما تؤدي إلى الغواية والضلال البعيد. وهذا يعد حجة قوية على وجوب طاعة الله ورسوله.

– يقابل بين نتيجتي الطاعة والمعصية، فالطاعة تنتج الرشد والهداية، والمعصية تنتج الغواية والضلال. وهذا التقابل يبرز الحجة بشكل أوضح.

– يكرر لفظ الضلال مرتين "غويَ" و"ضل ضلالا بعيداً"، مما يؤكد على شدة عاقبة المعصية وبعدها عن الحق وهذا التأكيد يزيد من قوة الحجة.

– يستخدم الطباق بين "رشدَ" و"غوي" لإظهار التضاد بين نتيجتي الطاعة والمعصية وهذا التضاد يبرز الحجة بشكل أكبر.

إذن، يستخدم الخطيب الطباق هنا كآلية حجاجية، لإقناع المتلقي بوجوب طاعة الله ورسوله، والابتعاد عن معصيتهما، من خلال تقابل نتائج الطاعة والمعصية، وتأكيد شدة عاقبة المعصية.

مثال3: « وجعل نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة منوطا بالإيمان والصبر»

وقد ورد هذا المثال في خطبة ابن الزكي؛ حيث استخدم الخطيب الطباق بين (الفئة القليلة) و(الفئة الكثيرة)، وهو طباق إيجاب بين اسمين؛ حيث قابل بين الفئتين المتضادتين من حيث العدد، مؤكداً أن نصر الفئة القليلة على الكثيرة، مرهون بالإيمان والصبر. وهذا التقابل يبرز الحجة على أهمية الإيمان والصبر في تحقيق النصر، ولإظهار أنه لا علاقة بين قلة العدد وكثرته في تحقق النصر، مما يلفت انتباه المتلقي وجذب اهتمامه نحو هذه الفكرة، ما يزيد من تأثيرها الحجاجي عليه، وقد وظف الخطيب الطباق هنا كآلية حجاجية، لإقناع المتلقي بأهمية الإيمان والصبر، في تحقيق النصر، مؤكداً أنهما المعيار الحقيقي للنصر لا العدد. وساعد الطباق في إبراز هذه الفكرة وتأكيدها في ذهن المتلقي.

2-البناء بالمتعاكسات (النقيض):

ذكر أصحاب المعجمات اللغويّة أنّ (النقيض) : « هو جعل الشيء على خلاف ما كان عليه»[1]، وهو ما سُمّي بطباق السلب لدى البلاغيّين، وأرادوا به: « الجمع بين فعليّ مصدر واحد مثبت ومنفيّ أو بين أمر ونهي»[2].

2- ابن فارس، المقاييس في اللغة، مادة (نقض).

3- عبد الكريم محمّد العبيديّ، ظاهرة التقابل الدلاليّ في اللغة العربيّة، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصريّة، كلّيّة الآداب، 1989م، ص52.

مثال1: « ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه».

ورد هذا المثال في خطبة النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء بين (يقضى) و(لا يقضون)، وبين (يملك) و(لا يملكون)، لتحقيق تناقض واضح، وهو طباق سلب وقع بين فعليين ثنائيين. والغرض منه، إبراز الحجة على سيادة الله وقدرته الفريدة على القضاء والملك، حيث يوضح الطباق أن الله وحده هو الذي يقرر ويحكم، بينما الناس ليسوا بقادرين على قضاء الأمور. واستعمل الخطيب هذا الطباق، لإظهار التفوق الكامل لله على البشر، وأنه المالك الحقيقي والقاضي العادل. وهذا يعزز الإيمان بالله، ويوضح الفارق الكبير بين قدراته وقدرات البشر.

بناءً على ذلك، يظهر أن استخدام الطباق في هذه العبارة، يعزز الحجة على السيادة والعظمة الإلهية، ويوضح التفوق الكامل لله على البشر في القضاء والملك.

مثال2: « فهو قد خرج من أرضكم، ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم، ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم ».

ورد هذا الطباق في خطبة البشير الإبراهيمي، واستخدم الطباق بين (خرج من أرضكم) و(لم يخرج من مصالح أرضكم)، وبين (لم يخرج من ألسنتكم) و(لم يخرج من قلوب بعضكم) لإظهار تناقض واضح. هذا التقابل يبرز الحجة؛ على أن الاستعمار قد يغادر المكان، لكن يظل مرتبطًا عند من يوالونه بمصالحهم وأفكارهم وعواطفهم. وهذا ينبه على فكرة خطورة الارتباط بالاستعمار.

ومنه يظهر أن استخدام الإبراهيمي للطباق في هذه العبارة، كان للتأثير على السامع ولفت انتباهه؛ على وجوب التخلص من مخلفات الاستعمار المادية والمعنوية، وفك الارتباط بكل ما له صلة به.

مثال3: ويضيف الإبراهيمي قائلا:« وحزتم من إعجاب العالم بكم ما لم يحزه شعب ثائر، فاحذروا أن يركبكم الغرور ويستزلكم الشيطان، فتشوهوا بسوء تدبيركم محاسن هذه الثورة ».

حيث يقابل بين (وحزتم من إعجاب العالم بكم) و(ما لم يحزه شعب ثائر)، مما يبرز الحجة على أن الإعجاب العالمي؛ كان نتيجة للثمن الغالي الذي دفعه الجزائريون، لأجل حريتهم فاكسبهم تقدير العالم واحترامه. ثم يسوق بعد ذلك غرضه من إيراد هذا الطباق، مسديا نصيحته بأن الأمة التي اشترت حريتها بالثمن الغالي؛ يجب أن تحذر من الغرور والشيطان، لئلا تشوه محاسن الثورة أو تقضي على السمعة العاطرة. لينبه على فكرة أن النجاح في الاستقلال يجب أن يرافقه الحذر واليقظة لئلا يفقد قيمته.

ومنه فأن استخدام الطباق في هذه العبارة، يعزز الحجة على أهمية الثمن الذي دفعته هذه الفئة لتحقيق حريتها.

3-البناء بالمختلفات:

مصطلح (التخالف) ذكره المتكلّمون، عندما عرّفوا الخلاف بأنّ « كون الموجودين غير متماثلين ... وغير متضادّين، أي غير متقابلين، ويسمّى بالتخالف أيضاً، فالمختلفان والمتخالفان موجودان غير متضادّين ولا متماثلين»[1] ومن مقولة علماء الكلام يتبيّن أنّ مصطلح (الخلاف) أعمّ من (التضاد) و (النقيض). فقد يتضمّن (الخلاف) المتضادّ من الألفاظ والمتغاير منها، وقد لا يكون المتقابلان متضادّين أو متناقضين، بل قد يكونان مختلفين، فليس كلّ تقابل يتضمّن تناقضاً أو تضادّاً، بل فيه ما يكون المتقابلان متغايرين[2].

مثال1: « ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت».

يستخدم الخطيب الطباق في هذا الموضع لتحقيق أهداف حجاجية:

–حيث قابل بين (السر والعلانية) وهو طباق بغير التضاد إذ أن السر ضده الجهر، ولكنه قوبل هنا بما يخالفه من حيث الصفة، وذلك للدلالة على أن إصلاح العلاقة مع الله، يجب أن يكون في السر والجهر على حد سواء. وهذا يعزز فكرة شمول التقوى لكل جوانب الحياة.

[1]- التهانويّ محمّد بن عليّ الفاروقيّ، كشّاف اصطلاحات الفنون، تح: لطفي عبد البديع، تر: عبد النعيم محمّد حسنين، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1977م، (الاختلاف)

[2]– ينظر: منال الصفّار، التقابل الدلاليّ في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، كلّيّة الآداب، 1994م، ص9.

– يستخدم الطباق بين "عاجل أمره" و"ما بعد الموت"، مؤكداً أن من يصلح علاقته مع الله، سيكون له ذكر في الدنيا وذخر في الآخرة، ليدلل على أهمية الاهتمام بالآخرة، إلى جانب الدنيا وأهمية إخلاص النية لله والابتعاد عن الرياء والسمعة.

فالطباق في هذه المثال يقوي الحجة على شمول التقوى لكل جوانب الحياة، وأهمية الاهتمام بالآخرة إلى جانب الدنيا، وإخلاص النية لله في كل الأعمال.

مثال2: يقول ابن الزكي معبرا عن تقديره واحترامه للمكان المقدس، مظهرا الانتماء العميق لهذا الموطن الروحاني: « وهو أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه». حيث وقع الطباق بين (أول) (وثاني)، (وثالث) فهو طباق بالمخالف.

وقد استخدام الخطيب الطباق كآلية حجاجية في هذه العبارة، لإبراز القيمة والأهمية الدينية والروحية للمسجد الأقصى، ولإظهار الارتباط العميق الذي يجمع الناس به، وتبيينا للصلة الوثيقة بينه، وبين المسجد الحرام، والمسجد النبوي، ولتمجيد الجهود الذي قام بها جيش صلاح الدين ومن معه من المسلمين، في استرداد هذا المسجد من الصليبيين، وإلحاقه بنظريه المسجد الحرام والمسجد النبوي.

مثال3: « هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، وغنيمة فحوزوها، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون».

اعتمد ابن الزكي على عدة مواضع في هذا المثال، لتحقيق أهداف حجاجية:

– فقابل بين (فرصة) و(فريسة) و(غنيمة)، مما يبرز الحجة على أن هذه الفرصة يجب أن تكون موضع اهتمام وتركيز، ليعزز فكرة أهمية الاستفادة من الفرص المتاحة.

– استخدم الطباق بين (مهمة) و(هممكم)، ليعزز فكرة أهمية المشاركة الفردية في تحقيق الأهداف.

– يوضح الطباق أن الأفراد يجب أن يبرزوا هممهم، ويبرزوا مهاراتهم لتحقيق الأهداف، تعزيزا لفكرة أهمية التميز والتفوق.

– يقابل بين (الأمور بأواخرها) و(المكاسب بذخائرها)، مما يؤكد الحجة على أن النتائج يجب أن تكون موضع اهتمام وتركيز. منبها على أهمية النتائج والفوائد.

– يستخدم الطباق، بين (أظفركم الله بهذا العدو المخذول) و(هم مثلكم أو يزيدون)، للتأكيد على أن الله هو من أظفرهم بهذا النصر، ليلفت الانتباه على أهمية الثقة بالله والتوكل عليه.

بناءً على ذلك، يظهر أن استخدام الحجاج في هذه العبارة، يعزز الحجة على أهمية الاستفادة من الفرص المتاحة، والمشاركة الفردية في تحقيق الأهداف، والتميز والتفوق، والتوكل على الله في تحقيق النتائج والفوائد.

4-البناء بالمتماثلات:

تقابل التماثل، هو مصطلح يستخدم في البلاغة والنقد الأدبي، للإشارة إلى استخدام اللغة بشكل يجمع بين مفردات متناظرة أو متشابهة في البناء اللغوي للجملة أو النص، ويعرفه ابن قتيبة بقوله: « الجزاء عن الفعل بمثل لفظه، والمعنيان مختلفان: نحو قوله تعالى: (إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم) أي يجازيهم جزاء الاستهزاء...»[1].

مثال1:« انصروا الله ينصركم، احفظوا الله يحفظكم، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم».

في العبارة، يستخدم الطباق بشكل حجاجيو لتعزيز الدعوة إلى نصرة الله، والذكر له، والشكر له. ويتجلى ذلك من خلال:

[1]- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2،1981م، ص 123.

– استخدام الطباق بين الأمر والخبر في كل جملة، مثل "انصروا الله ينصركم"، "احفظوا الله يحفظكم .هذا التقابل يؤكد على أن نصرة المؤمنين لدين الله، سيؤدي حتما إلى نصرة الله لهم وحفظه لهم.

– تكرار هذا الأسلوب في أربع جمل متتالية، يزيد من قوة الحجة ويؤكد عليها، فالتكرار يعطي الدعوة إلى الله وحده قوة وتأكيدا.

–استخدام أسلوب الأمر في كل جملة، مما يضفي طابعا حجاجيا وإقناعيا، فالأمر يحمل معنى الوجوب والضرورة.

بناءً على ذلك، يظهر أن استخدام الطباق في هذه العبارة، يؤكد الحجة على أهمية نصرة الله، وأن ذلك سيؤدي حتما إلى نصرة الله لهم، ورضاه عنهم، وزيادة نعمه عليهم.

مثال2: « فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين».

يستخدم الخطيب الطباق بين المتماثلات، للتميز بين إحسان الله، وإحسان العبد، وموالاة أولياء الله، ومعاداة أعدائه. فالطباق هنا، يقابل بين الإحسان إلى الله، والعداوة لأعدائه، للتأكيد على قيمة الجهاد في الدين الإسلامي.

مثال3: « فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده، وشكر لكم الملائكة المنزلون، على ما أهديتم لهذا البيت من طيب التوحيد، ونشر التقديس والتمجيد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث»

يستخدم الخطيب طباق التماثل، إذ يقابل بين كونهم جنوداً لله، أو كونهم جنودا لأهوائهم، ليلفت الانتباه لهذه القضية، ويكون جهادهم خالصا لوجه الله، ولترسيخ ذلك في أذهانهم.

كما يستخدم طباق التماثل أيضًا في قوله: « طيب التوحيد، ونشر التقديس والتمجيد» فهو يقابل بين طيب التوحيد وبين نشر التقديس والتمجيد.

ويظهر طباق التماثل أيضًا في قوله: « أذى الشرك والتثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث» فهو يقابل بين أذى الشرك والتثليث وبين الاعتقاد الفاجر الخبيث.

وبهذا يستخدم الخطيب طباق التماثل، لتأكيد المقابلة بين حالتين متضادتين متماثلتين، مما يعزز التأثير البلاغي للنص ويبرز المعنى المراد بشكل أقوى.

ثالثا- حجاجية الطباق بين الإقناع والمقصد:

يستعين الخطباء بأساليب عدة، لتحقيق التأثير على المتلقي وإقناعه بأهمية الخطاب، ومن بين تلك الأساليب أسلوب البديع، حيث يعتمد عليه الخطباء لتحقيق الإمتاع والإقناع، وتوجيه الجمهور نحو فهم الأفكار والمفاهيم بشكل مقنع.

1-أساليب الطباق في الحجاج:

أ- مراعاة المصلحة الدينية والجماعية:

قد يتبادر إلى الذهن، أن أول خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، سيكون حول أركان الإسلام أو أركانه، لكن رسول الله ابتعد عن هاتين النقطتين، إلى الحديث والتأكيد على صفة التقوى؛ ذلك أن الإنسان عندما يبني علاقة قائمة على التقوى بينه وبين الذات الإلهية، يكون مستقيما في كل تصرُّف من تصرفاته، فيصبح الحديث عن الإيمان وأركان الإسلام موضوعاً مقطوف الثّمار بالضرورة، لأنَّ التقوى تجعل كل فرد يراقب الله سبحانه وتعالى في كل ما يفعله، وكان ذلك منه مراعاة لمصلحة الجماعة المؤمنة، التي نزلت في أرض جديدة، اجتمع فيها المسلمون وأهل الكتاب، والذين لم يدخلوا بعد في هذه الدعوة، أو هم في شك منها، فآثر أن يكون موضوع الخطبة الأساس، ما فيه جمع للصف، وتحقيق المصلحة للجميع، حفاظا على سمعة الدعوة وتحقيقا لمصلحة الجماعة.

أما تحقيق المصلحة الدينية، فتجلى في عناية الرسول صلى الله عليه وسلم، بضرورة الإيمان بالله تعالى وطاعته وطاعة رسوله، ويظهر ذلك في تقابل الأفعال والصفات التي تدعو إلى الخير والتقوى، في مقابل الشر والغواية، وعلى سبيل المثال، يستخدم الرسول صلى الله عليه وسلم الطباق، في تقرير وحدانية الله، والدعوة إلى الهدى ودين الحق. كما في قوله في مستهل خطبته « وأؤمن به، ولا أكفره، وأعادى من يكفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً

عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو الساعة، وقرب من الأجل». في مقابل التحذير من الغواية والضلالة، التي كان الناس فيها، كما يحث على العمل للآخرة والتقوى، ويقابل ذلك بالتحذير من الغواية والضلال البعيد، مستعينا بالطباق تعزيزا لحجته وذلك بقوله: « من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً، وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم، أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى» هذا التضاد يبرز أهمية الرسالة التي جاء بها الرسول، ويؤكد على ضرورة اتباع الهدى وتجنب الضلال.

ب- تحسين الصورة:

يُستخدم الطباق كأسلوب لتوضيح المفاهيم والحقائق وتحسين الصورة، في ذهن المتلقي لتحقيق التأثير والإقناع، وقد لجا إليه ابن الزكي في خطبته، لتصوير معالم قدسية مدينة بيت المقدس وفضائلها، ومن تلك المعالم كونها القبلة الأولى، ومسرى الرسول ومعراجه، وفيها المكان الذي صلى فيه رسول الله. ولهذا نجد الخطيب يتحدث في مقدمة خطبته، عن الإسراء والمعراج، ويقتبس قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الاسراء: 1]، وينثر ذلك في تضاعيف كلامه، فيقول مشيداً بالرسول«... رافع الشك، وداحض الشرك، الذي

أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر، وما طغى».

ويفصل الخطيب في حديثه عن قدسية بيت المقدس، كما يبدو ذلك واضحاً في موضوع الخطبة، ولا عجب في ذلك، فإن حديثه جاء تغنياً بالفتح المقدسي العظيم، وتصويراً للمكانة التي تحظى بها مدينة بيت المقدس، في نفوس المسلمين، إذ نراه يتحدث عن فضائل بيت المقدس فيقول: « فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام. وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقر الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي. وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين. وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالملائكة المقربين ... وهو أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه». مستعينا بالون بديعية مثل (الامر/النهي) و(المنشر/المحشر) و(أول/ثاني/ثالث).

ج- تقبيح الصورة:

في هذه العبارة، من خطبة الإبراهيمي بكتشاوة، تجلى تقبيح صورة الاستعمار، من خلال استخدام الطباق بين (خرج من أرضكم) و(لم يخرج من مصالح أرضكم)، وبين (لم يخرج من ألسنتكم) و(لم يخرج من قلوب بعضكم) . وقد استعان الإبراهيمي بهذا الطباق، للتأكيد على أن الاستعمار لم يخرج من قلوب بعض محبيه، مما يشير إلى وجود خونة ومتعاونين مع المستعمر

من بعض الجزائريين، وهذا يعد تقبيحًا لصورة هؤلاء المتعاونين. ومن خلال ذلك يقدم النصح والتحذير بعدم التعامل مع الاستعمار إلا ما كان فيه ضرورة، –وأن ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها– وهذا يعد دعوة لمقاومة الاستعمار والابتعاد عنه قدر الإمكان.

ولتقبيح التعاون مع الاستعمار شبه الاستعمار بالشيطان، وهو تشبيه يوحي بالخبث والمكر والإغواء، الذي يمارسه الاستعمار لاصطناع خونة متعاونين يرعون مصالحه وأهدافه، وهو ما أراد الإبراهيمي التحذير منه.

د–الرفض:

تتجلى دلالة الرفض في عبارة النبي صلى الله عليه وسلم، بقوله « وأؤمن به ولا أكفره وأعادى من يكفره » وذلك من خلال استخدام الطباق بين (أؤمن به) و(لا أكفره)، مما يؤكد الرفض القاطع للكفر، فالطباق هنا يؤكد على الإيمان، ورفض الكفر في آن واحد.

وقد زاد النبي صلى الله عليه وسلم، هذه القضية تأكيدا، عندما وضح معاداته للكفر بقوله: « وأعادى من يكفره»، وهذا يعد رفضًا صريحًا للكفر والعداء لكل من يتبناه.

كما نلمس نفس المعاني، في قول ابن الزكي، في مستهل خطبة الفتح عند قوله:« شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشك، وداحض الشرك،

ورافض الإفك» حيث استخدام كلمة "رافض" في سياق الرفض القاطع للإفك والشرك، فالرفض هنا يأتي كتأكيد لقضية الإيمان بالله والرسول.

وكذلك في الجمع بين (رافع الشك) و(داحض الشرك)، مما يبرز دلالة الرفض لما يتعارض مع التوحيد والدين .

كما تجلى الرفض للشرك والكفر في استعمال أسلوب الشهادة « أشهد أن محمداً عبده ورسوله»، مما يزيد من قوة رفض الشرك وتوابعه مما يتعارض مع التوحيد والدين.

بناءً على ذلك، تتجلى دلالة الرفض في هذه العبارة من خلال استخدام كلمة "رافض" والجمع بين مستويات الرفض المختلفة، واستخدام أسلوب الشهادة، والتأكيد على التوحيد والدين وهذا يجعل الرفض قويًا وصريحًا وشاملاً للكفر بأنواعه .

هـ -الإقــرار:

إستهل البشير الإبراهيمي خطبته بجملة من المتقابلات تجلى فيها الإقرار بعظمة الله وتوحيده وقدرته وسنته في الكون، وبرسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وجهاده لإعلاء كلمة الله. يتضح ذلك من خلال:

– التأكيد على وحدانية الله وأنه لا مبدل لكلماته، وأنه جعل النصر يتنزل على من يشاء من عباده، ويميز المصلح من المفسد. وهذا يعبر عن الإقرار بعظمة الله وقدرته.

– استخدم الطباق بين (الغضب والسخط) و(الرحمة والرضا) في تجليات الله على عباده، إقرارا بسنة الله في الكون وأنه لا يظلم أحدا.

– التأكيد على أن الله صدق وعده، ونصر عبده محمدا، وأعز جنده، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم، سن الجهاد لإعلاء كلمة الله. وهذا يعبر عن الإقرار برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وجهاده.

– استخدم الطباق بين (الموت) و(الحياة) في قوله: « وجعل الموت طريقا إلى الحياة»، لتوضيح أن تلك سنة الله في الكون وأن الموت ليس نهاية بل طريق إلى الحياة الأبدية.

فمن خلال هذه النماذج من الطباق، يقر الإبراهيمي بعظمة الله وتوحيده وقدرته وسنته في الكون، وبرسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وجهاده لإعلاء كلمة الله.

2-مقاصد الطباق:

يعتمد الخطباء على الطباق لتحقيق أغراض معينة ومن تلك الأغراض والمقاصد التي قصد إليها الخطباء في هذه المدونة ما يلي:

أ- ترسيخ العقيدة:

يستعين الخطباء وخاصة في الخطب الدينية، بالمتقابلات للتأكيد على وحدانية الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد، وذلك في جل الخطب الدينية ومن أهمها خطب الجمعة، ويتجلى ذلك في:

- إبراز صفات الله وأسمائه الحسنى: بتوظيف الطباق لإبراز صفات الله وأسمائه الحسنى، والتحذير من الشرك والضلالة، مثل:« الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد».

- التأكيد على طاعة الله ورسوله : وتكاد لا تخلوا أي خطبة جمعة من التأكيد على أهمية طاعة الله ورسوله، إذ هي الهدف المبتغى من كل خطاب ديني، وذلك مثل قوله:« من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى».

- إبراز أهمية التقوى والعمل الصالح: حيث يوظف الخطباء الطباق، لترسيخ أهمية التقوى والعمل الصالح، كوسيلة للتقرب إلى الله، وتحقيق السعادة والرضا الإلهي، مثل:« إن تقوى الله توقى مقته وتوقى عقوبته وتوقى سخطه».

- التأكيد على سنن الله في الكون: وأنه هو الحاكم والمالك، مثل:« ويملك من الناس ولا يملكون منه».

– إبراز الحقائق الدينية والتشريعية: حيث يستعان بالطباق، لتوضيح الحقائق الدينية والتشريعية بطريقة موجزة وبليغة، مثل « الحق والباطل».

بهذه الطرق المتنوعة، يستعين الخطباء بتوظيف الطباق بفاعلية، لترسيخ العقيدة الإسلامية في أذهان المستمعين وتعزيز فهمهم للحقائق الدينية.

ب– تصحيح المفاهيم:

من المقاصد التي توخى الخطباء في هذه المدونة ترسيخها، وخاصة في خطبة فتح القدس، تصحيح المفاهيم المغلوطة عن عيسى عليه السلام، ودحض أقوال الذين رفعوه فوق رتبة العبودية لله عزل وجل، وقد جاء ذلك في خطبة ابن الزكي في قوله: « وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي أكرمه الله برسالته وشرفه بنبوته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته.... كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً»، فالطباق هنا، ينفي أن يكون عيسى إلهًا أو ابنا لله، مؤكدا على توحيد الله وتنزيهه عن الولد والشريك.

كما لجأ البشير الإبراهيمي للطباق، لتصحيح الصورة المغلوطة للذين يدعون الانتساب لدين المسيح عيسى ابن مريم، وأن دينه دين المحبة والسلام، كيف تسول لهم أنفسهم البغي والعدوان على شعب آخر، يمجد المسيح ابن مريم، ويؤمن بنبوته ورسالته، ويؤكد براءة دين المسيح ابن مريم، من هذا البغي والعدوان، حيث يقول الإبراهيمي: « أيها المؤمنون: قد يبغي الوحش على الوحش فلا يكون غريبا، لأن البغي مما ركب في غرائزه، وقد يبغي الإنسان على الإنسان فلا

يكون ذلك عجيبا لأن في الإنسان عرقا نزاعا إلى الحيوانية، وشيطانا نزاعا بالظلم، وطبعا من الجبلة الأولى ميالا إلى الشر، ولكن العجيب الغريب معا، والمؤلم المحزن معا، أن يبغي دين عيسى روح الله وكلمته، على دين محمد الذي بشّر به عيسى روح الله وكلمته».

حيث استخدام الطباق بين (الوحش) و(الإنسان)، للتوضيح أن البغي والظلم قد يصدر من الإنسان، كما يصدر من الحيوان، لأن في الإنسان ميلاً إلى الحيوانية، ولكن أن يكون البغي بين دين عيسى، ودين محمد، فهو "العجيب" و"الغريب" و"المؤلم" و"المحزن"، وهو ما يجب ألا يكون لأنهما من مصدر واحد، ومن مشكاة واحدة.

ج- تقويم السلوك:

يستخدم الخطيب الطباق (المقابلة بين متضادين)، لتقويم السلوك، والتأكيد على القيم الدينية والأخلاقية، ومن ذلك:

- التأكيد على طاعة الله ورسوله والتحذير من معصيتهما: يظهر ذلك في قوله: « من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً» فالطباق هنا، يؤكد على أهمية الطاعة والتحذير من المعصية.

- إبراز أهمية التقوى والعمل الصالح: يستخدم الطباق لإبراز أهمية التقوى والعمل الصالح، مثل « وإن تقوى الله توقى مقته وتوقى عقوبته وتوقى سخطه».

– التحذير من الإفراط في الدنيا والتفريط في الآخرة: يستخدم الطباق للتحذير من الإفراط في الدنيا والتفريط في الآخرة، مثل « خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله».

– التأكيد على أن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه: يظهر ذلك في قوله: « ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه . فالطباق هنا يؤكد على سيادة الله وقدرته».

– التأكيد على وجوب التكافل بين المؤمنين، خصوصا في الأزمات والحروب مثلما جاء في خطبة الابراهيمي:« أن هؤلاء المتضررين أبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم». فالطباق هنا يدعو إلى رعايتهم والتعاطف معهم.

– التحذير من الشر والإثم كقوله: « وجعلكم متعاونين على البر والتقوى، غير متعاونين على الإثم والعدوان»، وذلك من خلال تبيان العواقب السلبية للسلوك غير الصالح.

بهذه الطرق المتنوعة، يوظف الخطباء الطباق لتقويم السلوك والتأكيد على القيم الدينية والأخلاقية، كالطاعة والتقوى والعمل الصالح، والتحذير من المعاصي والإفراط في الدنيا والتفريط في الآخرة.

د-إظهار الفرح:

يتغنى ابن الزكي في خطبته بالفتح المقدسي، فيصوره فضيلة شريفة، لا يجاري المسلمين المجاهدين فيها مُجارٍ، ولا يباريهم في شرفها مبارٍ، فيصفه بأنه "الفتح الجليل، والمنح الجزيل،

والفتح المبين". ويصور آثار الفتح في نفسه، وفي نفوس المسلمين، ويصور أحاسيسه ومشاعره إزاء الحدث، كما يصور أحاسيس المسلمين ومشاعرهم إزاءه. وهي مشاعر الفرح والسرور، بل كان سرورا عظيما ويوما مشهودا، شاركت فيه السماءُ الأرضَ فرحا بالفتح، وشاركت الملائكة في السماء، المسلمين في الأرض فرحتهم وابتهاجهم. وما أجمل تصويره فرحة السماء، إذ يصورها وقد تفتحت أبواباً، ويصور الملائكة يتبادلون التهاني في السماء، كما كان أهل الأرض من المسلمين يتبادلونها في الأرض، وقد عم نور الفتح الأرض وأهلها. ويبدو هذا كله واضحاً في قوله: « فهذا هو الفتح الذي فُتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء. وابتهج به الملائكة المقربون. وقرَّ به عيناً الأنبياء والمرسلون»، إلى أن يقول: « فيوشك أن تكون التهاني بين أهل الخضراء، أكثر من التهاني بين أهل الغبراء».

كما تجلى هذا الفرح والسرور في خطبة الإبراهيمي، الذي يظهره فرحته وفرحة الجزائريين بالاستقلال، وبإعادة افتتاح ذلك المسجد العريق، بما يمثله من رمزية عند الجزائريين، في مستهل خطبته وفي ثناياها كقوله: « الحمد لله ثم الحمد لله، تعالت أسماؤه وتمت كلماته صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته، جعل النصر يتنزل من عنده على من يشاء من عباده، حيث يبتليهم فيعلم المصلح من المفسد، ويعلم صدق يقينهم وإخلاص نياتهم، وصفاء سرائرهم وطهارة ضمائرهم. سبحانه وتعالى جعل السيف فرقانا بين الحق والباطل، وأنتج من المتضادات أضدادها، فأخرج القوة من الضعف، وولّد الحرية من العبودية، وجعل الموت طريقا إلى الحياة، وما أعذبه إذا كان للحياة طريقا»، إنه يجمع بين جملة من المتضادة ليصنع صورة واضحة لدي المستمع عن الحال كيف

كان وكيف أصبح، فقابل بين "المصلح والمفسد"، "والحق والباطل"، "والقوة والضعف"، "والحرية والعبودية"، "والموت والحياة"، كما يقول في موضع آخر: « وهذا المسجد هو حصة الإسلام من مغانم جهادكم، بل هو وديعة التاريخ في ذممكم، أضعتموها بالأمس مقهورين غير معذورين، واسترجعتموها اليوم مشكورين غير مكفورين، وهذه بضاعتكم ردت إليكم، أخذها الاستعمار منكم استلابا، وأخذتموها منه غلابا، بل هذا بيت التوحيد عاد إلى التوحيد، وعاد التوحيد إليه فالتقيتم جميعا على قدر» ففي هذه العبارة، يستخدم الخطيب الطباق بشكل واضح، لإظهار الفرح والبشارة، باستعادة المسجد الذي اعتبره وديعة الإسلام، وبضاعة ردت إلى أهلها، وبيت التوحد الذي عاد إلى أمة التوحيد، فما أعظمها من فرحة وما أعظمه من نصر.

خـــــــاتـــمة

أتاحت لنا هذه الدراسة بشقيها النظري والتطبيقي الوقوف على جملة من النتائج نجملها في ما يلي:

– التداولية توجه لساني حديث تجاوز قصور اللسانيات التقليدية التي تبنت دراسة اللغة كنظام مغلق على ذاته، إلى دراسة اللغة كنظام للتواصل الفعال.

– التداولية مجال رحب التقت فيه علوم عدة، كاللسانيات وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاتصال وتحليل الخطاب، وتعنى التداولية بدراسة اللغة في الاستعمال.

– يعود الفضل في نشأة التداولية كتيار جديد إلى الفيلسوف الأمريكي " تشالز موريس" الذي استخدمه دالا به على فرع من فروع علم السيمياء.

– تبين سبق العرب إلى تناول العديد من مباحث التداولية، مما يدل على إدراكهم ووعيهم بالجانب التداولي للغة.

– تهتم التداولية، بكيفية بناء الجمل والنصوص؛ لتكون مقنعة وفعالة، ويتضمن ذلك استخدام استراتيجيات مختلفة من بينها الحجاج. وبذلك يتجلى الحجاج كمبحث من مباحث التداولية.

– الحجاج هو عملية تقديم الأدلة والحجج لدعم وجهة نظر معينة أو إقناع الآخرين بها.

–حظي الحجاج بمكانة متميزة في الدرس اللغوي القديم عند العرب، حيث لعب دورا حيويا في البلاغة والخطابة والفلسفة والفقه وعلم الكلام والنقد الأدبي، مما يبرز أهميته كأداة للتفكير والتحليل والإقناع.

– تكمن أهمية الحجاج فيما يولده في المتلقي من تأثير، من خلال استغلال الطاقة الإقناعية في اللغة.

– البلاغة الجديدة هي امتداد للبلاغة القديمة، تطورت لتشمل تحليل الخطاب والدراسات السيميائية والنقد الأدبي والتواصل الجماهيري، مع التركيز على دراسة الحجج في سياقاتها الاجتماعية والنفسية والثقافية.

– يعد الطباق أداة لغوية وأسلوبا بلاغيا فعالا في الخطاب الإقناعي؛ لأنه يعزز الوضوح ويجذب الانتباه ويؤثر عاطفيا ويقوي الحجة.

– يساعد الطباق على تأكيد موقف المتحدث، من خلال وضع الأمور في إطار مقارن، وذاك من شانه أن يسهم في إقناع المستمع بوجهة النظر المقدمة إليه، من خلال إظهار الفروق الواضحة بين المتناقضات.

– الطباق يجذب انتباه السامع؛ بسبب التباين بين الكلمات المتضادة، ما يساعد على التأكيد على النقاط المهمة وجعلها أشد تأثيرا.

– تم توظيف الطباق في مدونة الخطب، لتحقيق أهداف حجاجية منها: ترسيخ العقائد الإسلامية ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وتقويم السلوك، وإظهار الفرح.

– يرجع قلة الطباق في خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم، إلى قدرة الرسول البلاغية وقوته الحجاجية، وما ورد من الطباق في خطبته أدى دوره في وضوح الفكرة وتعزيزها. في حين أكثر ابن الزكي من الفنون البديعية في خطبته، تناغما مع ذوق عصره في اعتماد الصنعة اللفظية. كما نلمس اعتماد البشير الإبراهيمي على الطباق في خطبته، وقد جمع فيه بين جمال الصيغة ووضوح الفكرة وتأكيد المعنى.

قائمة المصادر والمراجع

1-القرءان الكريم برواية حفص عن عاصم

2-المصادر و المراجع:

أ-الكتب العربية:

- ابن الأثير نصر الله ضياء الدين، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تح: مصطفى جواد وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، العراق، (د ط)، 1956م.

- أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987م.

- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ج5، ط1، 1997م.

- أرسطو طاليس، الخطابة، تح: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، (د ط)، 1989م.

- ابن ابي الأصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح: حفني محمد شرف، (د ط)، (د ت).

- بشرى البستاني، التداولية في البحث اللغوي والنقدي، مؤسسة السياب، لندن، ط1، 2012م.

- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006م.

- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: عبد السَّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1998م.

- جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2016م.

- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار المغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2،1981م.

- حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات علم استعمال اللغة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011م.

- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط1، 2009م.

- ديوان امرؤ القيس.

- ذهبية حمو، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل، الجزائر، 2005م.

- ابن رشيق لقيرواني أبو الحسن، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح: محمد بدر الدين النعساني الحلبي، مصر، ج2، ط1، 1955م.

- الزبيدي محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ج5، (د ط)، 1969م.

- الزركشي بدر الدين، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم مكتبة دار التراث، مصر، (د ط) (د ت).

- الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط2، 1998م.

- السكاكي أبو يعقوب يوسف، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2011م.

- أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين، (تراجم رجال القرنين السادس والسابع للهجرة)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1974م.

- أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج3، ط1، 2002م.

- طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، (د ت).

- طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000م.

- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.

- عبد الرحمان بن الجوزي، الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، تح: محمود بن محمد السيد الدغيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط1، 1995م.

- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، ط2، 2007م.

- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة تداولية لغوية، دار الكتاب الجديدة، لبنان، (د ط)، 2004م.

- ابن علوي يحي بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 2002م.

- العياشي ادراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2011م.

- عيد رجاء، فلسفة البلاغة بين التقنية، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، (د ط)، (د ت).

- ابن فارس أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، تح: محمد عوض مرعب وفاطمة محمّد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 2001م.

- فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، (د ط)، 2005م.

- القزويني جلال الدين الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة، تح: عبد الرحمان البرقوقي، المطبعة الرحمانية، مصر، ط2، 1932م.

- ابن القيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، (د ط)، (د ت).

- المباركفوري صفي الرحمان، الرحيق المختوم، دار الحديث، لبنان، (د ط)، 2014م.

- مجدي محمد الشهاوي، خطب النبي صلى الله عليه وسلم، المكتبة الوقفية، مصر، (د ط) (د ت).

- محمد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات تح: محمد عبد الرحمان مرعشلي، دار علي بن النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 2003م.

- محمد سويرتي، اللغة ودلالاتها، عالم الفكر، الكويت، ط3، 2000م.

- محمد مندور، الأدب وفنونه، نهضة مصر، مصر، ط5 ، 2006م.

- محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة، ألإسكندرية، مصر، ط1، 2002م.

- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت).

- مطلوب أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، العراق، ج3، 1987م.

- المقريزي تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 1997م.

- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مج11، ط3، 1994م.

- نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2004م.

– نواري سعودي، في تداولية الخطاب الأدبي والإجراءات، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط1، 2009م.

–جميل عبد الحميد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2000م.

–عادل النويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة النويهض للثقافية والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1980م.

–عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، ط1، 2013م

–عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، ط1، 2003م.

ب–الكتب المترجمة:

– بلانشيه فيليب، التداولية من أوستين الى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2007م.

– فان ديك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي و التداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، 2000م.

– فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، (د ط)، 1996م.

– فيليب بروتون، جيل جوئييه، تاريخ نظريات الحجاج تر: محمد صالح ناجي الغامدي مركز النشر العلمي جامعة الملك عبد العزيز المملكة العربية السعودية ط1 ، 2011م.

– التهانويّ محمّد بن عليّ الفاروقيّ، كشّاف اصطلاحات الفنون، تح: لطفي عبد البديع، تر: عبد النعيم محمّد حسنين، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1977م.

ج–الكتب الاجنبية:

- Cambridge Advanced Learnes: Dictionory, Combridge UniversityPress 2ed Pub, 2004.

- Le Grand Robert, Dictionnaire de la langue Française, Paris 1989.

3-الرسائل الجامعية:

– بوصلاح فايزة، الاقتناع في قصة إبراهيم عليه السلام، مقاربة تداولية، رسالة ماجستير، جامعة وهران، (2010 /2009)م.

– عبد الكريم محمّد العبيديّ، ظاهرة التقابل الدلاليّ في اللغة العربيّة، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصريّة، كلّيّة الآداب، 1989م.

- منال الصفّار، التقابل الدلاليّ في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، كلّيّة الآداب، 1994م.

4- المجلات العلمية:

- أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، (مقال) ضمن كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق حمو النقاري.

- إميل بنفنيست عن ذاتية في اللغة (مقال)، ضمن كتاب تلوين الخطاب فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية و المعرفية والتداولية والحجاج، تر: صابر الحباشة.

- حافظ اسماعيلي علوي ومحمد وأسيداه، اللسانيات والحجاج الحجاج المغالط، نحو مقاربة لسانية وظيفية ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3.

- سرحان هيثم، الحجاج عند الجاحظ بحث في المرجعيات والنصيات والآليات، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، جامعة، العدد 115، 2011م.

- محمد البشير الإبراهيمي، أنا، مجلة الثقافة،العدد 104، مصر، 1955م.

- محمد الواسطي، أساليب الحجاج في البلاغة العربية، (مقال) ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد: حافظ إسماعيلي علوي عالم الكتب الحديث إربد الأردن، ج3، ط1، 2010م.

- محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته.

- هاجر مدقن، آليات تشكل الخطاب الحجاجي بين نظرية البيان ونظرية البرهان مجلة الأثر، الجزائر، العدد 05، 2005م.

– هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، (مقال) ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم.

5-المقالات العلمية:

– إميل بنفنيست عن ذاتية في اللغة (مقال)، ضمن كتاب تلوين الخطاب فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية و المعرفية والتداولية والحجاج، تر: صابر الحباشة.

– أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، (مقال) ضمن كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق حمو النقاري.

– حافظ اسماعيلي علوي ومحمد وأسيداه، اللسانيات والحجاج الحجاج المغالط، نحو مقاربة لسانية وظيفية ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج3.

- محمد الواسطي، أساليب الحجاج في البلاغة العربية، (مقال) ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد: حافظ إسماعيلي علوي عالم الكتب الحديث إربد الأردن، ج3، ط1، 2010م.

– محمد سالم ولد محمد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته.

– هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، (مقال) ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم.

-عبد الله صوله، الحجاج أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكا.

الملاحق

الخطبة الأولى: أول خطبة جمعة للنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة.

1-التعريف بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم:

(أبو القاسِم مُحَمَّد بْن عَبد اللَّه بْن عَبْد المُطَّلِب) رسول الله إلى الإنس والجن في الإسلام، أُرسِل ليُعيد العالمين إلى توحيد الله وعبادته شأنه شأن كل الأنبياء والمرسلين، وهو خاتمهم، وأُرسِل للناس كافة.

أ-الميلاد:

وُلد في مكة عام الفيل، 12 من شهر ربيع الأول في أشهر الأقوال، ما يوافق العشرين أو الثاني والعشرين من أبريل سنة571م[1]، وُلِد يتيم الأب وفقد أمه في سن مبكرة فتربى في كنف جدّه عبد المطلب، ثم بعد وفاة جده كفله عمه أبو طالب حتى ترعرع وشب، وكان في تلك الفترة يعمل بالرعي ثم بالتجارة.

تزوج في سن الخامسة والعشرين من خديجة بنت خويلد وأنجب منها كل أولاده باستثناء إبراهيم، كان قبل الإسلام يرفض عبادة الأوثان والممارسات الوثنية التي كانت منتشرة في مكة، وكان ينعزل ويتعبد في غار حراء عدة ليالٍ.

وعندما بلغ محمد صلى الله عليه وسلم الأربعين من عمره، قرابة 610م، نزل عليه جبريل بالوحي في غار حراء، وبدأ بالدعوة إلى الإسلام في مكة سرًا لثلاث سنوات، ثم قضى بعدهن

[1]- ينظر: صفي الرحمان المباركفوري، الرحيق المختوم، دار الحديث، لبنان، (د ط)، 2014م،ص46.

عشر سنوات أُخَر يجهر بدعوة أهلها وكل من يرد إليها من التّجار والحجيج وغيرهم، مُعلنًا أنه نبي مرسل من الله لهداية الناس، وأن الإسلام هو الطريق الصحيح لعبادة الله.

ب-الهجرة:

هاجر إلى المدينة المنورة والمسماة يثرب آنذاك عام 622م، وهو في الثالثة والخمسين من عمره بعد أن تآمر عليه سادات قريش ممن عارضوا دعوته وسعوا إلى قتله، فعاش فيها عشر سنين أُخر داعيًا إلى الإسلام، وأسس بها نواة الحضارة الإسلامية، التي توسعت لاحقًا وشملت مكة وكل المدن والقبائل العربية، حيث وحَّد العرب لأول مرة على ديانة توحيدية ودولة موحدة، ودعا لنبذ العنصرية والعصبية القبلية.

ج- وفاته:

توفي يوم 12 ربيع الأول للعام الـ 11 من الهجرة، عن عمر 63 عاما،الموافي لـ: 8 يونيو لعام 632م[1]. وكانت وفاته بالمدينة المنورة ودفن بمسجده عليه الصلاة والسلام.

2- نص الخطبة:

« الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفره وأعادى من يكفره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان، ودنو الساعة، وقرب من الأجل.

[1]- ينظر: صفي الرحمان المباركفوري، الرحيق المختوم، مرجع سابق، ص404.

من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً، وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة وعون، وصدق على ما تبتغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمر السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً، ﴿ ويحذركم الله نفسه والله رءوف بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 30] ، والذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك، فإنه تعالى يقول ﴿ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ للعبيد﴾ [ق: 29] واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية، فإنه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عنه سيئاته ويعظم له أجرا﴾ [الطلاق: 05] . ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمً﴾ [الأحزاب: 29] وإن تقوى الله توقى مقته، وتوقى عقوبته، وتوقى سخطه.

وإن تقوى الله تبيض الوجه، وترضى الرب، وترفع الدرجة، خذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جنب الله. قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا وليعلم الكاذبين.. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ﴿ لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَن حَيَّ عَن بَيِنَة﴾ [الأنفال: 42]. ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله يكفه ما بينه وبين الناس، ذلك

بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

الخطبة الثانية: أول خطبة جمعة بعد تحرير القدس عام 583هـ.

1- التعريف بشخصية محي الدين ابن الزكي:

أ- مولده:

هو القاضي محيي الدين ابن الزكي، محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز بن علي، قاضي قضاة الشام، محيي الدين أبو المعالي، ابن قاضي القضاة زكي الدين أبي الحسن، ابن قاضي القضاة المنتخب أبي المعالي، ابن قاضي القضاة الزكي أبي المفضل القرشي الدمشقي الشافعي[1].

ولد -رحمه الله- سنة خمسين وخمس مائة، وهو من بيت القضاء والحشمة والأصالة والعلم، وكان حسن اللفظ والخط، وقد قرأ المذهب على جماعة، وسمع من والده.

وكان مما زاده شرفا أنه شهد فتح القدس مع السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكان له يومئذ ثلاث وثلاثون سنة، واسمه على قبة النسر في التثمين بخط كوفي أبيض.

[1]- أبو شامة شهاب الدين، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مرجع سابق، ج2، ص 108.

ب-أخلاقه وملامح شخصيته:

كان -رحمه الله- فطنا ذكيا صاحب علم وفراسة، وفي ذات الوقت يتصف بالأمانة العلمية، ومما جاء في ذلك أنه لما فتح السلطان مدينة حلب سنة تسع وسبعين وخمس مائة أنشده القاضي محيي الدين بن الزكي قصيدة بائيةً أجاد فيها وجاء فيها:

وفتحك القلعة الشهباء في صفر... مبشرٌ بفتوح القدس في رجب[1]

فكان فتح القدس كما قال لثلاث بقين من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة، عندئذ قيل لمحيي الدين: من أين لك ذلك؟ فقال: أخذته من تفسير ابن برجان في قوله تعالى: ﴿ ألم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم :1-4].

فابن الزكي -رحمه الله- وجد النجابة في تفسير ابن برجان، فتلقفها بالقبول والاستحسان، بل وصاغها شعرا، وكان ذلك قبل تحرير الأقصى بأربع سنين، ومما يُعد درة على جبينه أنه نسب مصدر هذا الإلهام إلى أهله وهو تفسير ابن برجان ولم ينسبه إلى نفسه، وهكذا كانت أخلاق العلماء فضلا عن القضاة.

ج-ابن الزكي قاضيا:

اشتغل ابن الزكي على القاضي شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون وناب عنه الحكم وهو أول من ترك النيابة، وهو أول من خطب بالقدس لما فُتح -كما سيأتي- ثم

[1]- أبو شامة شهاب الدين، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مرجع سابق، ج2، ص (103-111).

تولى قضاء دمشق وأضيف إليه قضاء حلب أيضا، وكان ناظر أوقاف الجامع، وعزل عنها قبل وفاته بشهور ووليها شمس الدين بن الليثي ضمانا[1].

د-آثار ابن الزكي العلمية:

ذكر ابن كثير أن ابن الزكي كان له درس في التفسير يذكره بالكلاسة تجاه تربة صلاح الدين، وذكر أيضا أنه كان ينهى الطلبة عن الاشتغال بالمنطق وعلم الكلام، وكان يمزق كتب من كان عنده شيء من ذلك بالمدرسة النورية، وكان يحفظ العقيدة المسماة بالمصباح للغزالي، ويحفظها أولاده أيضا.

إلا أن أهم ما أُثر عنه في حياته العلمية والقضائية -حيث لم نعثر له على ذكرٍ لمؤلفات أو شيوخ أو تلاميذ- ما يمكن أن نسميه "خُطبة التحرير"، وهي خطبة الجمعة، تلك الخطبة التي أعيد بها افتتاح الأقصى من الفرنجة على يد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وكانت أول خطبة في القدس بعد التحرير.

تلك التي لم يكن مستعدا لها، بل أخرج إليه وقد أذن المؤذنون على السدة رسالة السلطان أن يخطب ويصلي بالناس، وهو مقام صعب؛ حيث اجتمع من أهل الإسلام ما لا يقع لهم إحصاء، وامتلأت ساحات المسجد وصحونه بالخلائق، واستعبرت العيون من شدة الفرح، وخشعت الأصوات ووجلت القلوب، وأخذ الناس لذلك الموقف أُهبته، حتى إذا حان وقت الخطبة قام ابن الزكي فخطب على المنبر في ذالك الحشد العظيم.

[1]- أبو شامة شهاب الدين، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، مرجع سابق، ص192.

هـ –وفاته:

توفي في دمشق في سابع شعبان سنة ثمان وتسعين وخمس مائة(598هـ)[1]، وقد توفي – رحمه الله– عن ثمان وأربعين عاما، ودفن بتربته بسفح قايسون.

2– نص الخطبة:[2]

« الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الكفر بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكفار بمكره الذي قدر الأيام دولاً بعَدْلِهِ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده لا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظهاره وإظفاره، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتظهيره لبيته المقدس من أدناس الشرك وَأَوْضَارِهِ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشك، وداحض الشرك، ورافض الإفك، الذي أسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السماوات العلا﴿ عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى مازاغ البصر وما طغى ﴾ [النجم:14–17]، صلى الله عليه وسلم وعلى خليفته

[1]– أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين، (تراجم رجال القرنين السادس والسابع للهجرة)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1974م، ص 32.

[2]– المقريزي تقي الدين، السلوك لمعرفة دول الملوك، مرجع سابق، ص210.

أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذو النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

أيها الناس ... أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا، لما يسره الله على أيديكم من أسترداد هذه الضالة من الأمة الضالة، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه، واستقر فيها رسمه ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بنى عليه، وشيد بنيانه بالتمجيد فإنه أسس على التقوى من خلفه، ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم ،ومعراج نبيكم عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام فهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومدفن الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل ينزل به الأمر والنهي، وهو أرض المحشر، وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الأقصى الذي صلى فيه رسول الله، عليه السلام، بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي أكرمه الله برسالته وشرفه بنبوته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى: ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة المقربون﴾ [النساء: 172] كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما

يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ [المؤمنون:91-92]، ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيءٍ قدير ﴾ [المائدة: 17]

وهو أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، فلولا أنكم ممن اختاره الله من عباده واصطفاكم من سكان بلاده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار، ولا يباريكم في شرفها مبار، وطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية والعزمات الصدِّيقية، والفتوحات العُمَرِية، والجيوش العثمانية، والفتكات العَلَوِيَّة، جددتم للإسلام أيام القادسية والملاحم اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مُهَجِكم في مقارعة الأعداء، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء، فاقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها، وقوموا لله بواجب شكرها، فله تعالى المنة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء، وتبلجت بأنوار وجوده الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون، وقربه عيون الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النعمة أن جعلكم الجيش الذي يفتح على يديه البيت المقدس في آخر الزمان والجند الذي تقوم بسيوفهم التهاني بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله، وأن يكون التهاني لأهل الخضراء أكثر من

التهاني لأهل الغبراء، أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ونص عليه في محكم خطابه، فقال تعالى: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ [الإسراء: 1] أليس هو البيت الذي عظمته الملل وأثنت عليه الرسل، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله لأجله الشمس على يوشع أن تغرب وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب، أليس هو البيت الذي أمر الله عز وجل موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب الله عليهم لأجله، فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان. فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عليه بنو إسرائيل وقد فضلت على العالمين، ووفقكم لما خذلت فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف حتى، فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتم لهذا البيت من طيب التوحيد، ونشر التقديس والتمجيد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن تستغفر لكم أملاك السماوات، وتصلى عليكم الصلوات المباركات، فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سَلِم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعُصِم، واحذروا من اتباع الهَوَى، ومواقعة الرَّدَى، ورجوع القهقرى، والنكول عن العِدَى، وخذوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقي من الغصة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضا عبادته، إذ جعلكم من خيار عباده، وإياكم أن يستزلكم الشيطان، وأن يتداخلكم الطغيان فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد، وخيولكم

الجياد وبجلادكم في مواطن الجلاد، لا والله ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، فاحذروا عباد الله بعد أن شرفكم الله بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل، وخصكم بنصره المبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين، أن تقترفوا كبيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه: ﴿ ولا تكونوا كالَّتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ﴾ [النحل: 92] ﴿ والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ [الأعراف: 175]

والجهاد الجهاد فهو من أفضل عباداتكم، وأشرف عاداتكم. انصروا الله ينصركم، احفظوا الله يحفظكم، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم، جدوا في حسم الدماء، وقطع شأفة الأعداء، وطهروا بقية الأرض من هذه الأنجاس التي أغضبت الله ورسوله واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله، فقد نادت الأيام: يا للثارات الإسلامية، والملة المحمدية، الله أكبر، فَتَحَ اللهُ وَنَصَر، غَلَبَ اللهُ وَقَهَر، أذلّ اللهُ مَنْ كَفَر.

واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، وغنيمة فحوزوها، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها، وسيروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منهم عشرون وقد قال الله تعالى: ﴿ وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ [الأنفال: 65-66] أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره، والازدجار بزواجره، وأيدنا معاشر المسلمين بنصر من عنده: ﴿ إن ينصركم الله

فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾ [آل عمران: 160]. إذ أشرف مقال يقال في مقام، وأنفذ سهام تمرق عن قِسِيّ الكلام، وأمضى قول تحلى به الأفهام، كلام الواحد الفرد العزيز العلام، قال الله تعالى: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ [الأعراف: 204]، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم وقرأ أول سورة الحشر: ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار﴾ [الحشر: 1-2].

ثم قال: آمركم وإياي عباد الله بما أمر الله به من حسن الطاعة فأطيعوه وأنهاكم وإياي عما نهى الله عنه من قبح المعصية فلا تعصوه، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه.

ثم خطب الخطبة الثانية على عادة الخطباء مقتصرة، ثم دعا للإمام الناصر خليفة العصر ثم قال:

اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك، المعترف بموهبتك سيفك القاطع وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المدافع، والذاب عن حُرُمِك الممانع، السيد الأجل، الملك الناصر جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان؛ صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر بيت المقدس من أسر المشركين، أبي المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير

المؤمنين، اللهم عَمِّر بدولته البسيطة، واجعل ملائكته برایاته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه، اللهم أبق للإسلام مهجته، ووف للإيمان حوزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته، اللهم كما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون، وابتلى المؤمنون، فافتح على يديه داني الأرض وقاصيها، وَمَلِّكْهُ صياصي الكفرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتبه إلا مزقها، ولا جماعة إلا فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها، اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها، وأرجاء الممالك وأكنافها، اللهم ذلل به معاطس الكفار، وارغم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار، وابثث سرايا جنوده في سبل الأقطار، اللهم أثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه الغر الميامين، وإخوانه أولي العزم والتمكين، وشد عضده ببقائهم، واقضِ بإعزاز أوليائه وأوليائهم، اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام، وتتجدد على ممر الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي الذي لا ينفذ في دار المتقين، وأجب دعاءه في قوله: ﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ [النمل :19].

ثم دعا بما جرت به العادة ونزل وصلى».

الخطبة الثالثة: أول خطبة جمعة بعد الاستقلال في مسجد كتشاوة.

1-التعريف بالبشير الإبراهيمي:

هو محمد البشير الإبراهيمي: (1889-1965م) الموافق لـ (1306-1385هـ) من أعلام الفكر والأدب في العالم العربي، ومن العلماء العاملين في الجزائر. هو رفيق النضال للشيخ عبد الحميد ابن باديس في قيادة الحركة الإصلاحية الجزائرية ونائبه، ثم خليفته في رئاسة جمعية العلماء المسلمين، وكاتب تبنى أفكار تحرير الشعوب العربية من الاستعمار، وتحرير العقول من الجهل والخرافات.

أ- مولده:

ولد يوم الخميس 14 شوال 1306 هـ، الموافق 13 يونيو عام 1889م في (أولاد إبراهيم) حاليا بلدية تابعة لدائرة -رأس الوادي - ولاية برج بوعريريج، بدائرة سطيف[1].

ب- مرحلة تعلمه وتكوينه:

في هذه المرحلة الخصبة المباركة تلقى درسه الأولى عن أبيه وعمه، ثم في زاوية ابن الشريف في (شلاطة) بجبال القبائل. هاجر إلى المدينة المنورة عام (1911م)، فأتم دراسته العالية فيها في طريقه حط الرحال في مصر التي أقام بها ثلاث أشهر، التقى خلالها بعدد من علمائها وشعرا وحضر بعض دروس العلم في الأزهر وبعدها أكمل مسيرته وعندها استقر بالمدينة المنورة والتي درس فيها على كبار علمائها الوافدين من كل أنحاء العالم الإسلامي، علم التفسير والحديث

[1]-عادل النويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة النويهض للثقافية والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1980م، ص13.

والفقه والتراجم وأنساب العرب وأدبهم، ودواوينهم كما درس علم المنطق والحكمة المشرقية وأمهات كتب اللغة والأدب ثم أصبح يلقي الدروس للطلبة في الحرم النبوي ويقضي أوقات فراغه في المكتبات العامة والخاصة باحثا على المخطوطات[1].

ثم انتقل إلى دمشق عام (1917)، وعمل أستاذا للأدب العربي بالمدرسة السلطانية، كما شارك في تأسيس المجمع العلمي العربي سنة (1921م)، وفي نفس السنة عاد إلى الجزائر العربي، وانقطع للخدمة العامة مع رائد النهظة "ابن باديس"[2].

لقد استطاع الإبراهيمي بأسلوبه المحنك أن يبعث الوعي الفكري والثقافي وسط الجماهير، أن يوقظ الضمائر بعد سباتها وجمودها كي تتحرك للدفاع عن كرمتها، وسرعان ما ذاع صيته واتسعت شهرته، وأصبح الأستاذ الأول لفئة الشعب المختلفة في ضواحي هذه المدينة التاريخية، ورسول اللغة العربية وباعثها ومحبيها ونافث سحرها في النفوس حتى أصبح إذا ما نطق المحدث بالعامية في بعض الدروس استهجنها الناس، فابتهجت روحه لهذا الصدى المبكر في نفوس الجماهير، وبهذه الاستجابة المفقودة التي حركة الهمم في بذل التبرعات وتقديم الإعانات المادية والهبات المختلفة لبناء المدارس للتعليم العربي الحر، إعلان اللغة العربية شعارا للنهضة العلمية وفي أرض الجزائر استمر الإبراهيمي يواصل الكلمة الإصلاحية في العلم والتربية ويهيمن على الدروس بنفس طويل في تلمسان « فكنت ألقي عشرة دروس في اليوم أبدأها بدرس في الحديث بعد

[1]– عادل النويهض، معجم أعلام الجزائر، مرجع سابق، ص13.

[2]– آثار البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، ج2، ص10.

صلاة، وأختمها في درس في التفسير بين المغرب والعشاء وبعد صلاة العتمة»[1]. ثم ينصرف إلى بعض النوادي ليلقي فيها محاضرة في التاريخ الإسلامي، ألقيت في الحقبة الموالية بظهور الإسلام من العصر الجاهلي، إلى نبدأ الخلافة العباسية بضع مئات من المحاضرات ، في هذه الفترة من إقامة الشيخ في مدينة تلمسان عقد 06 إلى 15 سبتمبر (1935) المؤتمر من الخامس الجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين تحت إشراف الإستاد الكبير الشيخ البشير الإبراهيمي، لذي خطب فيهم خطابا رائعا.

وفي أواخر سنة 1962م يعود الإبراهيمي إلى الجزائر بعد انتصار الثورة، وبعد اغتراب ، واتصل بالشعب الجزائر في أول صلاة أم فيها الجمهور في جامعة (كتشاوة) والتقى برفاق جهاده و بجيل من تلاميذه ، واتخذ مدينة الجزائر العاصمة مقرا له[2].

ج- وفاته:

وبعد هذا الجهاد الطويل أسلم الإبراهيمي روحه الطاهرة إلى خالقها يوم الأربعاء الثامن عشر محرم (1355 هـ) الموافق ل 19 ماي (1965 م) فارق الدنيا عن عمر يناهز ستة وسبعين سنة ، وكان ليوم وفاته الأثر البليغ في نفوس الشعب الجزائري. دفن جثمانه بمقبرة (سيدي محمد بالجزائر العاصمة بعد ما أقيمت عليه صلاة الجنازة بالجامع الكبيرة يوم الجمعة 20 محرم (1355 هـ) الموافق 21 ماي (1965) م[3].

---

[1]- محمد البشير الإبراهيمي، أنا، مجلة الثقافة،ع 104، مصر، 1955م، ص146.

[2]-نفسه، ص146.

[3]- ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، أنا، مرجع سابق، ص61.

د- آثاره:

إن موضوعية الإبراهيمي جعلته يعزف عن التأليف والطبع والتحقيق ، فهو لو يكتب الكثير ، وحتى الشيء الذي كتبه بقي مخطوطا ولم يصلنا منه إلا القليل ، والقسط الكبير من كتاباته وإنتاجه كان قد نشر في جرائد وطنية وعربية وهي عبارة عن مقالات عربية وسياسية واجتماعية ودينية منها ما يلي:

1: كتاب بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية في الجزائر: وقد تتبع فيه الإبراهيمي دراسة اللهجة السائدة في مواطن بني هلال بن عامر.

2: كتاب النفاية في لغة العرب: جمع فيه كل ما جاء على وزن فعالة من مختار الشيء أو مرذوله.

3: كتاب أسرار الضمائر في العربية: 4 كتاب التسمية بالمصدر.

5: كتاب الصفات التي جاءت على وزن فعل يفتح العين.

6: كتاب نضام العربية في موازين كلامها.

7: كتاب الإضطراد و الشذوذ في العربية.

8 :رسالة: في الفرق بين لفظ المضطرد والكثير عند ابن مالك.

9: رسالة: في ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا اثنان.

10 رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة و العامية.

11: كتاب عيون البصائر وهو الكتاب الوحيد الذي طبع في حياته، وهو يضم بين طياته مجموعة من المقالات السياسية والدينية والفكرية وغيرها التي كان الإبراهيمي يفتتح بها مقالاته. في جريدة البصائر في سلسلتها الثانية وقد اختار الإبراهيمي هذه المقالات بنفسه لتنشر في طبعتها الأولى بمصر و يحتوي هذا الكتاب على 701 صفحة:

12 رواية كاهنة لأوراس و هي من النشر الجزائري الحديث لم يطبع منها شيء.

13 رواية الثلاثة: و هي عبارة عن مسرحية شعرية تحتوي على 881 بيتا كتبها الإبراهيمي في منفاه في أفلو طبع المسرحية أحد تلامذته ، على الآلة الراقنة ، وقدم لها و علق عليها.

14: رسالة الضب: وهو بحث علمي أدبي يتناول فيه الكاتب الحقائق علمية عن أصل هذا الحيوان وفصيلته.

15: كتاب ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة.

16: أرجوزة شعرية سماها صاحبها ملحمة نضمها في المنفى بأفلو، وهي تبلغ ستة وثلثين ألف بيت، كما يقول الإبراهيمي نفسه وأنها تضمنت فنون في المواضيع تاريخ الإسلام ووصف كثير من الفرق التي حدثت في عصرنا هذا ولمجتمع الجزائري بجميع فرقه ونحله والأفانين في الهزل للمذاهب الاجتماعية والسياسية... والإنحاء على الابتداع في الدين وتصغير لأولياء الشياطين ومحاورات أدبية رائعة بينهم وبين الشياطين ووصف لاستعمار، ومكانده ودسائسه وحيله وتخديراته للشعوب للقضاء على مقوماتها.

17: كتاب أثار الشيخ الإبراهيمي: و هو يشتمل على ما كتبه في المرحلة الأولى من حياته في الحقل الوطني بعد عودته من المشرق العربي في العشرينيات من هذا القرن إلى نهاية الثلاثينيات ، وهذا الكتاب تتوزعه مواضيع اجتماعية وسياسية وثقافية ودينية، وجمع هذه المقالات نخبة من تلاميذ الشيخ الإبراهيمي.

18: آثار محمد البشير الإبراهيمي وهو الجزء الثالث الذي يتناول مقالات أدبية واجتماعية وسياسية صحفية وقرارات جمعية العلماء ، وهو يحتوي على كتابات الإبراهيمي التي نشرها في جريدة البصائر ، وظهر هذا الكتاب في الجزائر في شهر أكتوبر 1986م.

لقد امتاز الإبراهيمي بغزارة فكره في العلوم العربية والعلوم الإسلامية، ما يدل على سعته الشاملة وتبحره فيها، وهذا الإنتاج لهو خير دليل على ذلك.

2- نص الخطبة:

« الحمد لله ثم الحمد لله، تعالت أسماؤه وتمت كلماته صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته، جعل النصر يتنزل من عنده على من يشاء من عباده حيث يبتليهم فيعلم المصلح من المفسد، ويعلم صدق يقينهم وإخلاص نياتهم وصفاء سرائرهم وطهارة ضمائرهم. سبحانه وتعالى جعل السيف فرقانا بين الحق والباطل، وأنتج من المتضادات أضدادها، فأخرج القوة من الضعف وولّد الحرية من العبودية وجعل الموت طريقا إلى الحياة، وما أعذبه إذا كان للحياة طريقا، وبايعه عباده المؤمنون الصادقون على الموت، فباعوا بالصفقة الرابحة، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا.

سجانه تعالى جده، تجلى على بعض عباده بالغضب والسخط فأحال مساجد التوحيد بين أيديهم إلى كنائس للتثليث، وتجلى برحمته ورضاه على آخرين فأحال فيهم كنائس التثليث إلى مساجد للتوحيد، وما ظلم الأولين ولا حابى الآخرين، ولكنها سنته في الكون وآياته في الآفاق يتبعها قوم فيفلحون، ويعرض عنها قوم فيخسرون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله شرع الجهاد في سبيل الله، وقاتل لإعلاء كلمة الله حتى استقام دين الحق في نصابه وأدبر الباطل على كثرة أنصاره وأحزابه وجعل نصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة منوطا بالإيمان والصبر، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وكل متبع لهداه داع بدعوته إلى يوم الدين.

ونستنزل من رحمات الله الصيبة، وصلواته الزاكية الطيبة لشهدائنا الأبرار ما يكون كفاء لبطولتهم في الدفاع عن شرف الحياة وحرمة الدين وعزة الإسلام وكرامة الإنسان وحقوق الوطن.

واستمد من الله اللطف والإعانة لبقايا الموت وآثار الفناء ممن ابتلوا في هذه الثورة المباركة بالتعذيب في أبدانهم والتخريب لديارهم والتحيف لأموالهم.

وأسأله تعالى للقائمين بشؤون هذه الأمة ألفة تجمع الشمل، ووحدة تبعث القوة ورحمة تضمد الجراح، وتعاونا يثمر المنفعة، وإخلاصا يهون العسير، وتوفيقا ينير السبيل، وتسديدا يقوم الرأي ويثبت الأقدام وحكمة مستمدة من تعاليم الإسلام وروحانية الشرق وأمجاد العرب، وعزيمة تقطع دابر الاستعمار من النفوس، بعد أن قطعت دابره من الأرض.

ونعوذ بالله ونبرأ إليه من كل داع يدعو إلى الفرقة والخلاف، وكل ساع يسعى إلى التفريق والتمزيق وكل ناعق ينعق بالفتنة والفساد.

ونحيي بالعمار والثمار والغيث المدرار هذه القطعة الغالية من أرض الإسلام التي نسميها الجزائر، والتي فيها نبتنا، وعلى حبها ثبتنا، ومن نباتها غذينا وفي سبيلها أوذينا.

أحييك يا مغنى الكمال بواجب وأنفق في أوصافك الغر أوقاتي

يا أتباع محمد عليه السلام هذا هو اليوم الأزهر الأنور وهذا هو اليوم الأغر المحجل، وهذا هو اليوم المشهود في تاريخكم الإسلامي بهذا الشمال، وهذا اليوم هو الغرة اللائحة في وجه ثورتكم المباركة، وهذا هو التاج المتألق في مفرقها، والصحيفة المذهبة الحواشي والطرز من كتابها

وهذا المسجد هو حصة الإسلام من مغانم جهادكم، بل هو وديعة التاريخ في ذممكم، أضعتموها بالأمس مقهورين غير معذورين واسترجعتموها اليوم مشكورين غير مكفورين، وهذه بضاعتكم ردت إليكم، أخذها الاستعمار منكم استلابا، وأخذتموها منه غلابا، بل هذا بيت التوحيد عاد إلى التوحيد وعاد التوحيد إليه فالتقيتم جميعا على قدر.

إن هذه المواكب الحاشدة بكم من رجال ونساء يغمرها الفرح ويطفح على وجوهها البِشر لتجسيمٌ لذلك المعنى الجليل، وتعبيرٌ فصيح عنه، وهو أنّ المسجد عاد للساجدين الرُكع من أمة محمد، وأن كلمة لا إله إلا الله عادت لمستقرها منه كأن معناها دام مستقرا في نفوس المؤمنين، فالإيمان الذي تترجم عنه كلمة لا إله إلا الله، هو الذي أعاد المسجد إلى أهله، وهو الذي أتى بالعجائب وخوارق العادات في هذه الثورة.

وأما والله لو أن الاستعمار الغاشم أعاده إليكم عفوا من غير تعب، وفيئة منه إلى الحق من دون نصب، لما كان لهذا اليوم ما تشهدونه من الروعة والجلال.

يا معشر الجزائريين: إذا عدت الأيام ذوات السمات، والغرر والشيمات في تاريخ الجزائر فسيكون هذا اليوم أوضحها سمة وأطولها غرة وأثبتها تمجيدا، فاعجبوا لتصاريف الأقدار، فلقد كنا نمر على هذه الساحة مطرقين، ونشهد هذا المشهد المحزن منطوين على مضض يصهر الجوانح ويسيل العبرات، كأنّ الأرض تلعننا بما فرطنا في جنب ديننا، وبما أضعنا بما كسبت أيدينا من ميراث أسلافنا، فلا نملك إلا الحوقلة والاسترجاع، ثم نرجع إلى مطالبات قولية هي كل ما نملك في ذلك الوقت، ولكنها نبّهت الأذهان، وسجلت الاغتصاب وبذرت بذور الثورة في النفوس حتى تكلمت البنادق.

أيها المؤمنون: قد يبغي الوحش على الوحش فلا يكون غريبا، لأن البغي مما ركب في غرائزه، وقد يبغي الإنسان على الإنسان فلا يكون ذلك عجيبا لأن في الإنسان عرقا نزاعا إلى الحيوانية وشيطانا نزاغا بالظلم وطبعا من الجبلة الأولى ميالا إلى الشر، ولكن العجيب الغريب معا، والمؤلم المحزن معا، أن يبغي دين عيسى روح الله وكلمته على دين محمد الذي بشّر به عيسى روح الله وكلمته.

يا معشر المؤمنين: إنكم لم تسترجعوا من هذا المسجد سقوفه وأبوابه وحيطانه، ولا فرحتم باسترجاعه فرحة الصبيان ساعة ثم تنقضي، ولكنكم استرجعتم معانيه التي كان يدل عليها المسجد في الإسلام ووظائفه التي كان يؤديها من إقامة شعائر الصلوات والجمع والتلاوة ودروس العلم

النافعة على اختلاف أنواعها، من دينية ودنيوية فإنّ المسجد كان يؤدي وظيفة المعهد والمدرسة والجامعة. أيها المسلمون: إنّ الله ذمّ قوما ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 114]، ومدح قوما ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18]

يا معشر الجزائريين: إن الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك)، فهو قد خرج من أرضكم، ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم، ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم، فلا تعاملوه إلا فيما اضطررتم إليه، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.

يا معشر الجزائريين: إنّ الثورة قد تركت في جسم أمتكم ندوبا لا تندمل إلا بعد عشرات السنين وتركت عشرات الآلاف من اليتامى والأيامى والمشوهين الذين فقدوا العائل والكافل وآلة العمل فاشملوهم بالرعاية حتى ينسى اليتيم مرارة اليتم، وتنسى الأيم حرارة الثكل، وينسى المشوه أنّه عالة عليكم، وامسحوا على أحزانهم بيد العطف والحنان فإنّهم أبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم.

يا إخواني: إنكم خارجون من ثورة التهمت الأخضر واليابس، وإنكم اشتريتم حريتكم بالثمن الغالي، وقدمتم في سبيلها من الضحايا ما لم يقدمه شعب من شعوب الأرض قديما ولا حديثا، وحزتم من إعجاب العالم بكم ما لم يحزه شعب ثائر، فاحذروا أن يركبكم الغرور ويستزلكم الشيطان، فتشوهوا بسوء تدبيركم محاسن هذه الثورة، أو تقضوا على هذه السمعة العاطرة.

إنّ حكومتكم الفتية منكم، تلقت تركة مثقلة بالتكاليف والتبعات في وقت ضيق لم يجاوز أسابيع، فأعينوها بقوّة، وانصحوها في ما يجب النصح فيه بالتي هي أحسن، ولا تقطعوا أوقاتكم في السفاسف والصغائر، وانصرفوا بجميع قواكم إلى الإصلاح والتجديد، والبناء والتشييد، ولا تجعلوا للشيطان بينكم وبينها منفذا يدخل منه، ولا لحظوظ النفس بينكم مدخلا.

وفقكم الله جميعا، وأجرى الخير على أيديكم جميعا، وجمع أيديكم على خدمة الوطن، وقلوبكم على المحبة لأبناء الوطن، وجعلكم متعاونين على البر والتقوى غير متعاونين على الإثم والعدوان.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَايُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم وهو الغفور الرحيم».

فهرس الموضوعات

شكر وعرفان.....03

مقدمة.....أ-ج

مدخل: ماهية التداولية

أولا- تعريف التداولية.....11

1- التعريف اللغوي.....11

2-التعريف الاصطلاحي.....13

2-1- مصطلح التداولية عند الغرب.....13

2-2-مصطلح التداولية عند ا لعرب.....16

ثانيا- نشأة التداولية.....**19**

1-السيميائية.....19

2-الفلسفة التحليلية.....21

3-اللسانيات (لسانيات التلفظ) 24

ثالثا-مبادئ التداولية.....27

1- أفعال الكلام..... 27

2-متضمنات القول.....29

3-الاستلزام الحواري.....31

4- الحجاج.....32

رابعا-جهود العرب التي تصب في التداولية.....33

الفصل الأول: الحجاج والطباق الماهية والأنواع

أولا- تعريف الحجاج: 39

1-لغة: 39

2-التعريف الإصطلاحي.....42

2-1عند الغرب قديما.....42

2-2-الحجاج عند الغرب حديثا.....44

3-الحجاج عند العرب: 47

3-1-الحجاج عند العرب القدامى.....47

3-2-الحجاج عند العرب المعاصرين.....50

ثانيا-الحجة.....52

ثالثا-أنواع الحجاج.....53

1-الحجاج التوجيهي.....53

2-الحجاج التقويمي.....53

3-الحجاج البلاغي.....55

4-الحجاج الفلسفي.....56

رابعا- تقنيات الحجاج وآلياته.....56

1- تقنيات الوصل.....56

2- تقنيات الفصل.....58

خامسا: الحجاج واللغة.....60

سادسا: الطباق تعريفه أنواعه وأهميته.....62

أولا:تعريف الطباق.....63

1-التعريف اللغوي.....63

2- التعريف الاصطلاحي..... 65

2-1-الطباق في اصطلاح البلاغيين.....65

2-2-الطباق بين اللغة والاصطلاح.....66

3-أنواع الطباق 68

4-أهمية الطباق.....71

5- المقابلة.....71

الفصل التطبيقي: الطباق من التحسين إلى التداول

أولا–تقديم المدونة (الخطب) 76

ثانيا– الوظيفة البنائية للطباق في الخطابة.....79

1–البناء بالمتضاداتّ.....83

2–البناء بالمتعاكسات.....85

3–البناء بالمختلفات.....88

4–البناء بالمتماثلات.....91

ثالثا– حجاجية الطباق بين الإقناع والمقصد.....93

1–أساليب الطباق في الحجاج..... 92

2–مقاصد الطباق.....**98**

الخاتمة.....107

قائمة المصادر والمراجع.....110

الملاحق.....121

فهرس الموضوعات.....145

الملخص:

نشأت التداولية كمفهوم لساني من الفلسفة التحليلية، وتهتم بالاستعمال الفعلي للغة في التواصل بين مرسل ومتلقٍ، مع مراعاة ظروف المخاطبين ومقاصدهم. ويشكل الحجاج جانبا مها في المسار التداولي؛ حيث غدا هدفا كامنا وراء كل خطاب يرمي إلى إقناع الآخر بفكرة أو تبني سلوك ما. وتتداخل التداولية والحجاج في استخدام الاستراتيجيات البلاغية المختلفة مثل الطباق، لتعزيز قوة الإقناع.

ويهدف هذا البحث لدراسة دور الطباق في الإقناع ضمن خطب الجمعة، باعتبارها نماذج خطابية وحجاجية تسعى للتأثير في المستمعين باستخدام استراتيجيات لغوية متعددة.

الكلمات المفتاحية: التداولية، الحجاج، الطباق، خطب الجمعة.

Abstract

Pragmatics emerged as a linguistic concept from analytical philosophy, focusing on the actual use of language in communication between a sender and a receiver, taking into account the circumstances of the interlocutors and their intentions. Argumentation forms a significant aspect of the pragmatic process, as it becomes an underlying goal behind any discourse aimed at convincing the other of an idea or adopting a

certain behavior. Pragmatics and argumentation overlap in the use of various rhetorical strategies, such as antithesis, to enhance the power of .persuasion

This research aims to study the role of antithesis in persuasion within Friday sermons, considering them as discursive and argumentative models that seek to influence listeners by employing multiple linguistic .strategies

Keywords: pragmatics, argumentation, antithesis, Friday sermons.